الرحلةُ...

إلى بلاد الأشواق

"شرح القصيدة الميميّة"

للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة

٦٩١ - ٧٥١هـ

عرض وتحليل
مصطفى عراقي

معيد بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

قسم النحو والصّرف والعروض

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله تعالى فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعـــد :

فإن صلتى بالإمام ابن القيم وكتبه عميقة وبعيدة .

وإنها لتزداد على مدى الأيام عمقاً وبعداً .

فمنذ قراءتى الأُولى لكتابه الممتع « الوابل الصيب من الكلم الطيب » أدركت أننى أمام عالم متبحر . . . وأديب متفنن .

لقد كان من حسن حظى أن وقع فى يدى كتاب الوابل الصيب فأعجبنى العنوان وشعرت بما يحوى من صُورةٍ خلابة تغلغلت فى إحساسى وأحدثت شعوراً يشبه ما أحدثه فى نفسى كتاب آخر كنت قد قرأْته فى هذه الفترة المبكرة وهو كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » للأُستاذ « سيد قطب » .

وعشت هذا الإحساس العميق ، مع صفحات كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » أنتقل من صورة إلى صورة . . . فى صحبة أديب حاذق وعالم متبحر ، فبحثت عن كتب ابن القيم أَنْهَلُ من معينها العذب الجميل .

ثم قرأت بعد ذلك شيئاً من « القصيدة الميمية » (الرحلة إلى بلاد الأَشواق) فى مقدمة كتاب « حادى الأَرواح إلى بلاد الأَفراح » أذهلتنى روعتها واستمتعت بها أَيَّما استمتاع واستغرقت فى صورها وظلالها وأبحرت فى أشواقها . . .

ثم نشأَت فكرة تقديم شرح مبسط لهذه القصيدة الجليلة . فعزمت على ذلك . ولكنه كان عزم العاجز المتردد . حتى عرضت عزمى على أخى الفاضل « شرف حجازى » صاحب دار الكتب السلفية بالقاهرة . فوجدت منه التشجيع ، وأطلعنى على نص كامل للقصيدة من مجموعة بعنـــوان :

(أربح البضاعة فى معتقد أهل السُّنة والجماعة) جمعها على بن سليمان آل يوسف .

وقد أثار النصُّ كاملاً للقصيدة أشواقى ، وهز مشاعرى ؛ فأَقدمت على الفور . على هذا العمل الجليل ، مستعيناً بالله سبحانه . . وعلى الله قصد السبيل .

* * *

وكان لابد من هذا التساؤل :

إذا كانت القصيدة – : كما سنرى – فى هذه القمة من الروْعة والبيان ، وعلى هذا الثراء من الصور والظلال ، والغنى بالمشاعر الإنسانية والأَشواق النورانية . . فلماذا لم تُعرف فى تاريخ أدبنا العربى وعلى مستوى أدبائنا ، ومدارسنا وجامعاتنا ؟

إن القصيدة بالمقاييس الفنية السليمة ، وبالمعايير الإنسانية السديدة آية فى الفن . . وساحة للجمال . . ومعرِض للأَشواق والمشاعر الإنسانية السامية .

فلماذا لم تتفتح لها الأَبواب فى تاريخ أدبنا العربى . . تالك الأَبواب التى تفتح لقصائد دونها بمراحل فى مقاييس الفن . . والإنسانية ؟

وقد يظن ظانٌّ . . أن السبب هو أن القصيدة قصيدة دينية تتحدث عن الجنة والزهـــد .

ويقيناً ليس هذا هو السبب . . فتاريخ الأَدب العربى يعرف نماذج لشعر الزهـــد .

ولكن العجيب أن هذه النماذج التى يعرفها لشعر الزهد أردأ وأقل فناً من قصيدة الإمام ابن القيم « الميمية » . . كما أن القصيدة ليست من هذه المنظومات التى اشتهرت تسميتُها بالدينية . . إنها قصيدة قصيدة أشواق ومشاعر ، وسيقف القارئ بنفسه على ثراء القصيدة . . وسيحلق معها فى أرق الآفاق . ولهذا قدمت بفصل لتعليل هذه الظاهرة الخطيرة ، مستفيداً من دعوة السيدة الجليلة « بنت الشاطئ » لتحرير

تاريخنا الأدبي من لانحرافات . . والمقاييس الباطلة ، وإقامته على أسس سليمة وقواعد صحيحة .

ولأن القصيدة الميمية أنموذج فريد وجيد ، ودعوة بالغة إلى السمو بالفن إلى آفاق عالية ومشارف سامية بالاستفادة من طريقة القرآن فى الصور والظلال والاقتراب من النفس الإنسانية لكل ذلك ؛ تحدثت عن دعوة الاستاذ « سيد قطب » للخروج بالقصيدة العربية من واقعها المتخلف المزرى . . إلى الآفاق العليا . . الخروج من الظلمات إلى النور .

وهذه هى القصيدة أمامنا . . دعوة صريحة وحثيثة لباوغ أرق الآفـــاق .

وتحدثت فى جو القصيدة عن العلاقة الوطيدة بينها وبين حياة ابن القيم وأشواقه وأفكاره فى سائر كتاباته .

وتبين لى — كما سيرى القارئ — إن شاء الله — أن القصيدة تعبير صادق عن صاحبها ، تكشف لنا عن مشاعر إنشان محب . . . يعانى مشاعر الاغتراب والبعد عن المحبوب وديار المحبوب . . فيقوده الشوق إلى هذه الرحلة المثيرة . . « الرحلة إلى بلاد الأشواق » .

وفى استعراض عام للقصيدة . وقفت أمام صورها المذهلة وعشت مع ظلالها الموحية الثرية .

وبينت بعد هذا مدى اهتمام ابن القيم بالصورة والظلال ومدى إدراكه إلى قيمة الصورة والظلال فى اللغة بعامـة .

ولقد قادنى هذا إلى تتبع آثار هذه الطريقة فى كتابات ابن القيم ، فثبت بيقين أنه رائد لهذه الطريقة الفريدة .

ثم أوضحت هذه الطريقة من كلام الأَستاذ « سيد قطب » ليكتشف القارئ بنفسه كيف أن ابن القيم هو الرائد الحقيق لطريقة الصور والظلال على المستويين : النظرى ، والتطبيق .

* * *

وفى الشرح التفصيلى للقصيدة ، بدأت بتفسير بعض المفردات من معاجم اللغة . بعد تقسيم القصيدة إلى مقاطع يحمل كل مقطع منها عنواناً خاصاً ، واهتممت بالإشارة إلى ما يقتبسه الإمام ابن القيم من آيات وأحاديث مع تفسير الآيات وشرح الأَحاديث من كلام أئمة التفسير والحديث .

كما اهتممت بشرح بعض مقاصد القصيدة بالرجوع إلى كتب الإمام ابن القيم نفسه حيث فصَّل فيها ما أجمله فى القصيدة .

ثم بعد هذا إشارات مختصرة لبعض الصور البلاغية والتعقيب ببعض الفوائد .

وفى الختام تلخيص لبعض نتائج البحث وإشارة إلى أهم أغراض الرحــلة .

وعلى الله قصد السبيل . . .

مصطفى عراقى

الدعوة إلى تصحيح واجهة تاريخ الأَدب العربى

أغتنم هذه المناسبة العظيمة – مناسبة تقديم وتحليل قصيدة الإمام الجليل ابن القيم « الميمية » . تلك القصيدة الغنية بالمشاعر الصادقة ، والحافلة بالأَشواق السامية ، والزاخرة بالآيات الفنية العالية ، كما سيرى القارئ إن شاء الله أثناء عرض القصيدة .

أغتنم هذه المناسبة بدعوة لابد منها ولا غنى عنها إن أردنا الخير لأَنفسنا ولأَدبنا . . ولحقيقة وجودنا . وإن صدقنا العزم على النهوض من واقعنا المزرى لنحلق فى آفاق عليـــا .

إن تاريخ الأَدب العربى فى حاجة ماسَّة إلى تصحيح وتنقيح ، بل إنه فى أمسِّ الحاجة إلى إعادة كتابته من جديد وإقامته على أسس سليمة وقواعد صحيحة .

إن الحالة التى وصل إليها هذا التاريخ الأَدبى للعرب – ككل ما يتصل بالعرب الآن – حالة مزرية تبعث فى كثير من الأَحوال على السخرية . . والاشمئزاز !

ولتصوير تلك الحالة المزرية التى وصل إليها الدرس الأَدبى أقدم الصورة الصادقة التى عرضتها السيدة الجلية الدكتورة « بنت الشاطئ » فى كتابها القيّم « قيم جديدة للأَدب العربى » (١) ، وقد أرادت أن تجعل

---

(١) الطبعة الأولى – أكتوبر سنة ١٩٦١ (دار المعرفة) .

من كتابها هذا،دعوة صادقة « لتحرير الدرس الأدبى من بعض قيم خاطئة ومقاييس منحرفة ، احتكمت فيه زمانًا وسيطرت ولا تزال تسيطر على فهمنا لتراثنا الأدبى ، وتوجه ذوقنا له ، وإدراكنا لوظيفته فى الحياة ومكانه فيها » أ هـ .

* * *

وقد بينت أهمية هذه الدعوة ووجوب الإصغاء إليها . . تقول :
« . . . والعربية قد كان لها من قديم أكثر مما كانت لغة أخرى للناطقين بها ؛ وذلك بحكم اتصال العربية ، لغة المعجزة الدينية ، بالعقيدة التى نعرف سلطانها على الوجدان ، ومكانها فى الصراع التاريخى المرير ، بين العربية وأعدائها : من شعوبية وتتر ، وصليبية واستعمار » (١) .

« . . . ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية ، بعد أن انقضى عهد الاستعمار العسكرى (٢) ، ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة ؛ لأن وجودنا الكريم لا يحميه إلا صون مقوماته المعنوية » .

« وهنا يأخذ الأدب دوره فى نضالنا الجديد ، حارساً لمعنوياتنا ، وكما لاذ أسلافنا باستنقاذ تراث العربية الأدبى والفكرى فى صراعهم مع الشعوبية ، وكما حموا به العربية دينًا ودولة فى مهب الإعصار التترى ، نلوذ به اليوم لحماية وجودنا ، فى مهب تيارات الغز الفكرى »اهـ

وكيف ينهض الادب بهذا الدور الجليل ؟

---

(١) ولا يخفى أن قائمة أعداد هذه الأمة ولغتها وأدبها تزداد يوماً بعد يوم .
(٢) الواقع يؤكد أنه لم ينقض ، وأنهم ما يزالون يستخدمونه بحدة وشراسة .

تقول الدكتورة « بنت الشاطئ » :

« . . . ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل فى المعركة ، ما لم نتحرر من الرواسب التى شوهت تراثنا الأدبى ، وما لم ننج فى ذوقنا له من سيطرة الأذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط ، بل لن تقوم للأدب العربى فينا قائمة ، ما لم نلغ الأسوار التى عزلت أبنائنا – وأجيالاً قبلهم من أجمل ما لنا من تراث فنى ولم نمح الظلال التى حجبت عنهم بهاءه ، حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان ، وأشخاص بذواتهم ، من الشعراء والكتاب ، يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب الحطام أيام كانوا فى عزلة من الشعوب ، وإلى تمرغهم فوق « بلاط » الأمراء والسلاطين ، أيام كان هذا البلاط يكتم أنفاس الرعايا المحكومين ويهدر ما لهم من حقوق وحرمات . . » اهـ .

* * *

رأينا إذن كيف تشوه تاريخ الأدب العربى ، وكيف ترتب على هذا التشويه مفاسد ومفاسد .

فكان أن حرمنا من كثير من الأدب الصادق الذى يعبر عن حقيقتنا وأشواقنا ورسالتنا فى الحياة .

وكان أن ابتلينا بنماذج منحرفة ، لا تعبر عن أصالتنا وإنما هى دخيلة علينا ، كأشعار المديح الكاذب ، والمجون القبيح .

ورأينا إذن أن الدعوة صادقة ، وأنها كانت كفيلة – وهى صادرة

من أستاذة كبيرة لها شأنها فى حياتنا الثقافية والفكرية ، بأن تتآزر الجهود لإحيائها والقيام بها وبنصرتها . . ولكن يبدو أن هناك من لا يريد الخير لهذه الأمـــة .

* * *

تقول السيدة الجليلة :

وهذه المحاولة تكشف عن أمثلة من انحراف الفهم لتراثنا الأدبى وضلال المقاييس فى ذوقه ونقده وتقويمه . وتلتمس له قيماً جديدة محررة من الشوائب الدخيلة والرواسب المتخلفة .

ولست أدعى أننى بهذه المحاولة وفيت بما يجب للموضوع من إحاطة وشمول » اهـ .

وحتى لا يبادر أحد ويظن أن المسألة ، مسألة هدم لمجرد الهدم تقول : « وأنا أشتغل بهذه المحاولة فى الجامعة من زمن ، أريد بها أن نستخلص لأدبنا العربى قيماً جديدة نابعة من تراثنا الأصيل ، دون التزام بالقيم وبالأحكام التى ذهب إليها نقاد سلفوا ، نظروا فى هذا التراث بذوق عصرهم ، وحكموا عليه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ، ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلاً بعد جيل ، وصار لها من حرمة القديم وطول العمر وسلطان الإلف ، ما أضفى عليها مهابة ترد عنها محاولات التجديد(١) ، وتحميها ممن يجرؤون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة وذوق حديث » اهـ .

---

(١) هذا رغم صيحات مدعى التجديد فى شتى المجالات .

نعم إنه الهدم الذى يسبق البناء .

ولكن المجال هنا فى حاجة إلى تنبيه . إننا لا ندعو إلى التحرر من موازين قديمة فاسدة ، وقيم بالية منحرفة فى تاريخ الأَدب العربى لنرتمى فى أحضان تقليد أجنبى رخيص ؛ لأَننا فى هذه الحالة نكون قد استبدلنا شرًا بشر .

والسيدة الجليلة بنت الشاطىء منتبهة إلى ذلك تماماً إذ تقول :

« حين أحاول أن أستحدث قيماً جديدة للأَدب العربى ، أجد من الضروري أن أعود إلى قديمٍ لنا بعيد . لكى أستمد لأَدبنا مفهوماً نابعاً من أُصوله النقية ، وقيماً حرة لا ينكرها أدب العربية فى جوهره الصافى الأَصيل . وكثير منا يشفقون من مثل هذه العودة ويريدون لنا – بحسن نية(١) – ألا نشغل بماض عن حاضر وألا ننصرف عن حياتنا هذه التى نحياها إلى حياة قديمة سلفت وانقضت .

ولست أقول هنا إن مثل هذا المذهب إثم وخطيئة ، فليس المجال مجال وعظ خلقى ، لكنى أقول إن وعينا لذواتنا يقتضى حتماً أن نعرف ماضينا(٢) ، وإن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أُصولها .

وإذا كانت دراسة التاريخ القديم لأُمة ، ضروري ، لا يسهل أن نتصور إمكان الاستغناء عنها ، فكذلك الأَدب ؛ لا يجرؤ واعٍ

---

(١) وفى أحيان كثير بسوء نية .

(٢) وأن نبحث عن الجوانب المضيئة المشرقة فيه .

على الزعم بإمكان الاستغناء عن معرفة قديمنا منه ، لا لكونه تسجيلاً وجدانياً لتاريخنا فحسب ، ولكن — كذلك — لما له من أثر في تكوين ذوقنا ووجداننا ، على مرّ العصور وتتابع الأَجيال » اهـ .

« هى إذن رجعة لابد منها إلى أدبنا الأَول ، وعودة لا مفر منها إلى قديمنا الأَصيل ، نرد بها على أدبنا ما سلبته إياه عصور الانحطاط والضعف ، ونلتمس لمزاجنا الأَدبى الحاضر ميراثه النقى ، ونهتدي به إلى الشوائب الدخيلة التى جمدت ذوقنا الفنى لأَدبنا ، وأصابت مناهج الدرس الأَدبى بما يشبه العقم والشلل » اهـ .

وقد حدثتنا السيدة عائشة عبد الرحمن عن بعض هذه المقاييس الفاسدة والقيم المنحرفة التى تحكمت ولا تزال فى تاريخنا الأَدبى .. وهذا أوان التفصيل .

* * *

١ — الشعر تجارة العرب

هذا أول المقاييس الفاسدة التى نظرت إلى الشعر والأدب عموماً نظرة مادية تجارية عقيمة . لا على أنه أداة الإنسان فى التعبير عن مشاعره وأشواقه وتجاربه . بل تنظر إليه وتقومه بميزان التجار وللأسف كانت هذه نظرة نقاد العرب . يقولون للشاعر : تكلم فى هذا الموضوع لأنه سيعود عليك بربح أكثر ، وتكلم فيه بهذا الأسلوب لتظفر بالربح الوفير . وإياك أن تتحدث عن كذا فإنه سيثير عليك حفيظة الحكام .

كل هذا دون مراعاة مشاعر الأديب وأشواقه وتجاربه .

ولنستمع لتعليق السيدة « بنت الشاطىء » على هذه المقولة المنحرفة :

تقول « .. كلمة تناقلها النقاد من قديم حتى وصلت إلى ابن رشيق فى القرن الخامس الهجرى فسجلها فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » قيمة نقدية مقررة يمكن أن تفسر لنا كثيراً من الأحكام والمقاييس التى أقاموا عليها وزنهم للشعر وتصرفهم فى أقدار الشعراء ومراتبهم . كما يمكن أن تفسر لنا كذلك اضطراب مقاييسهم وتناقض أحكامهم » .

والنقاد العرب خضعوا لهذا الحكم الفاسد ومثال ذلك :

(لم يجد ابن سلام مكاناً فى طبقاته للشنفري ، ولا لغير

الشنفري ، من هؤلاء الذين يمثل شعرهم نقاء الفطرة العربية وهيامها بالحرية ، ويعبر عن معاناة وجدانية ؛ ويعكس صورة أمينة لواقع حياتهم فى صميم الجزيرة » . لمـــاذا ؟

لأن هؤلاء (لم يكن الشعر عندهم تجارة قط ، وإنما كان متنفساً لشجنهم وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة ، وتعبيراً عن وجدان مثقل بالهموم .

ولو شاءوا أن يتجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشترين . ولكن فطرتهم العربية الحرة أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ومشاعرهم فى سوق البيع والشراء ، وأن ينزلوا عن حريتهم التى لم تحتمل ضغط عرف الأهل والعشيرة ، والتى اشتروها بغالى الثمن من غربة وحرمان وضياع » .

فما موقف النقاد العرب إذن ؟

« لقد احتفوا أيما احتفاء ببضاعة التجار من الشعراء وحرصوا أشد الحرص على رواية الشعر الذي قيل فى بلاط المناذرة والغساسنة ولم يكتفوا بأن يجعلوا « المديح » أهم أغراض الشعر بل زادوا فجعلوا المدح غاية القصيدة العربية بوجه عام .

« ويشهد تراثنا أن المدح لم يكن غاية القصيدة وعمودها إلا عند المتكسبين بالشعر » .

« ولم يجهل النقاد أن المجتمع العربى الحر كان يأنف من التكسب بالشعر ويسقط من يجعل الشعر متجرًا لكنهم فى حديثهم عن التكسب بالشعر والأنفة منه قرروا أن مدح الملوك مفخرة . . ! وأن الذل لهم معفو ، وأن عطاءهم شرف .

« وقرروا – بناء على النظرة التجارية للشعر – أن الطمع أقوى مثيرات الشعر ودوافعه » .

ويحذر الناقد الشعراء الذين يتصدون لمعارضة السلطان الجائر بقولة حق ، يحذرهم فيقول :

« وأحمق الشعراء عندي ، من أدخل نفسه فى هذا الباب أو تعرض له – يعنى السلطان – وما للشاعر والتعرض للتخوف ، وإنما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله .

هذه هى نظرتهم للشاعر وصاحب الكلمة : طالب فضل ومستجدي عطاء ، شحاذ بباب الملوك ، تاجر يبغى الربح . فلم يضيع رأس ماله !

* * *

— ٢ —

« الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل فى الخير ضعف ولان »

قاعدة فاسدة أُخرى . ومقياس منحرف آخر قوّموا به الشعر ! لقد رأوا أن باب الشعر هو الشر ، فليس له مجال سواه ! فيا أيها الشاعر كن شريراً فاسدًا مفسدًا ليكون لك مكان عندهم وإياك والخير ، حتى لا يكون مصيرك مصير « حسان بن ثابت » رضى الله عنه .

« هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سفط شعره » وبرغم أن النقد الحديث لا يمكن أن يتقبل هذه المقولة التى تتعارض مع طبيعة الشعر ، بوصفه تعبيرًا صادقاً عن النفس سواء كان بخير ، أو شر (وليس فى مجال الشر كما تزعم المقولة الفاسدة) .

برغم هذا فلا تزال النتائج العملية لتلك المقولة كما هى فى تقدير منازل الشعراء ، والافتتان بشعر المجون .

وليس هذا مجال مناقشة هذه المزاعم والتصورات الفاسدة .

وأما عدم تقديرهم لشعر حسان وأمثال حسان من شعراء الدعوة من شعراء الدعوة الإسلامية فإنه تقدير لهم بوضعهم فى مكانة أسمى من مقاييسهم المنحرفة .

وبالاطلاع على شعر حسان ترى أن شعر حسان الإسلامى ، أرقى فناً وأصدق عاطفة (والمقياس هنا رقى الفن وصدق العاطفة وجمال

التعبير وليس بمقاييس تجارية ، ترى أن المديح أهم أغراض الشعر .
وليس بمقاييس باطلة ترى أن مجال الشعر هو الشر فحسب .

وقد علقت السيدة « بنت الشاطىء » على هذه المقولة الباطلة بقولها فى سخرية : (قالوا هذا ، فما لنا فى الأَمر حيلة ، ولا لنا من أحكامهم مفر أو مخلص) .

وتقرر السيدة الفاضلة أن الشعر الصادق لا يسقط بالخير بل يسمو ويرتفع : « ولقد عاش العرب طويلاً والأَدب فنهم الأَوحد ووسيلتهم التى لا نعرف أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم ، وجاء الإسلام بمعجزة بيانية ، فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان البيان فيهم ومنزلته عندهم ، بقدر ما كانت شاهدة أن الإسلام لم يجىء ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته فى المجتمع ، وأبقى لذويه ما كان لهم من قديم ، من شرف القيادة الوجدانية ، والتكلم بلسان الجماعة » .

وكان التطور العظيم الذى حدث هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأُمة فلم يهدر بهذا ذاتية الشاعر ، بل أراد لها أن ترحب فلا تعود محدودة بنطاق الأُسرة والقبيلة .

« ولم يصر الشاعر فى الوضع الجديد داعية مأجورًا ، فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا أحدًا من خلفائه رضوان الله عليهم يستبيح لنفسه أن يفتح بيت مال المسلمين للشعراء . ثمناً لتأَييدهم ، بل ما كان الرسول ولا أحدًا من خلفائه يعتبر هذا المال ملكاً له يتصرف فيه كيفما شاء ، إنما هو مال المسلمين أمانة فى أيدي النبي

صلى الله عليه وسلم والخلفاء ، ينفقون منه على خير الرعية ومصلحة الجماعة طبقاً لحدود الله .

« كان الشاعر إذن ، يصدر عن عقيدة وإيمان ، ويهون عليه فى سبيلهما أن يغضب عشيرته عند اختلاف الدين ، لا التماساً لأجر مادى كما كان يفعل المرتزقة من تجار الشعر ، بل ابتغاء رضاء الله ورسوله » .

فلو سئلوا أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل عقيدتهم ، لما ترددوا فى بذلها طائعين راضين ! » .

ولنتابع عرض مقاييسهم الفاسدة .

* * *

— ٣ —

« تحكم القصر فى تحديد صنف البضاعة الشعرية المطلوبة »

« .. وكما احتاج نظام القبيلة إلى الشاعر يؤيده ويحميه واحتاجت الأُمة الإسلامية أول عهدها إلى تعبئة وجدانية يتولاها الشعراء .

– احتاج الوضع الملكى الجديد إلى الشعر يؤيده ويناضل عنه ويمكن له فى نفوس الجماهير .

وكان بيت المال فى أيدى رجال القصر وعملائه . وكانت سطوة السلطان تسندهم فراحوا ينتزعون التأَييد ، إما بإغراء المال ، أو برهبة السلطان . ومن يومها بدا كأَن القصر هو الدنيا .

أو هذا هو ما يمثله لنا التاريخ الأَدبى .

« وكانت المنافسة بين شعراء البلاط على القربى والرضى لا تهدأ ولا تفتر » .

« وكما كان القصر يتصرف فى منازل شعرائه ، ومراتبهم الشعرية ، ويوزع عليهم حظوظهم من الشهرة والرزق كان كذلك يتصرف فى شعرهم ويحدد لهم مجال القول » [صفحة ١٠٠] .

« ومثل تلك البيئة يروج النفاق والكذب والزيف ، ويدور الشاعر مع الريح » [صفحة ١٠٦] .

« وهان على الشعراء أن يدوروا بمعازفهم يطربون الحكام ، بل هان على « الفرزدق » ، الذى زعموه أشعر طبقته ، إذا افتخر أن يجعل نفسه مضحكاً للسيد الأمير ، ويعلن هذا على ملأً من القوم » [صفحة ١٠٨] .

ومن الطبيعى أن تنشأ عن هذه الانحرافات نتائج عملية :

« ونجم عن هذا الوضع شر كثير ، أصاب الحياة الأدبية إذ ذاك ، نتاجاً ونقدًا ، ثم لم تستطع أن تنجو منه بعد ذلك :

فلقد تركز الاهتمام حول شعراء القصر الأموي ، مع أن الحياة لم تكن بلاطاً فحسب » [صفحة ١٠٩] .

ومن هذا الشر الكثير أنهم أهملوا :

« بيئة أُخرى فى مكة حول الحرم الأقدس ، وبيئة رابعة فى المدينة دار الهجرة حول مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومثواه تتشبث بمجد لها دينى ، وتغذيها ذكريات النضال المشهود ، وتضيئها وجوه كريمة ، من آل النبي صلى الله عليه وسلم والبقية الصالحة من صحابته . .

وكانت وكانت . . فى هذه الدنيا الواسعة العريضة التى يستحيل أن تحصرها جدران القصر الأموى فى دمشق ، وقصر عتبة بن أبى سفيان أو عبد العزيز بن مروان فى مصر ، وقصر أخيه بشر ، أو زياد بن أبيه أو الحجاج فى العراق ، أو نصر بن سيار فى خراسان .

لكن عيون المؤرخين والنقاد ، شدت إلى هذه القصور ، فلم تكد تعرف من أمر الحياة الأدبية غير البضاعة الواردة منها ، الرائجة فيها ، ولم تكد تحتفل بغير الشعراء الذين يصمهم البلاط بخاتمه » [صفحة ١١٢] .

ولم يكن هذا الذى أشرنا إليه من ضيق النظرة ، وانحصار الاهتمام بأدب السياسة هو كل ما أصاب الأدب من شرٍّ ونُكر ، بل أصابه منهما ما هو أفدح حين احتكمت موازين السياسة فى أقدار الشعراء ومقاييس الأدب . ثم ظلت تسيطر على أذواق النقاد وتعطل تقديرهم » [صفحة ١١٤] . . ومما أصاب الحياة الأدبية من نكر ، أن موازين السياسة وحدها هى التى كانت تحتكم فى القيم الفنية للأدب وتسيطر على ذوق النقاد .

فالفنون الشعرية التى أجازها البلاط كانت تحدد مجال الشعر وأغراضه عند من حصروا الدنيا بين جدران القصر .

فلأن الساسة كانوا يحتفلون بالمدح والهجاء وجد من النقاد القدامى قوم يقولون. (كابن رشيق)(١)الشعر كله نوعان مدح وهجاء .

ولأن شعراء القصر كانوا يصدرون فيما يقولون عن رغبة أو رهبة جاء نقاد فحصروا فيهما مثيرات الوجدان وبواعث النشاط الأدبى وقرر آخرون (مثل ابن قتيبة)(٢) : « أن الطمع أول دواعى الشعر »

---

(١) ابن رشيق . العمدة ٧٨/١ .
(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء ٢٤/١ .

والرغبة عندهم ، لا تعنى غير الطمع فى عطاء ذوى المال ورضى أصحاب السلطان . بدليل أنهم حصروا مجالها الشعرى فى المدح والشكر أو كما قالوا : فمع الرغبة يكون المدح والشكر .

والرهبة فى حسابهم ، لم تكن تعنى سوى الخوف من سطوة حاكم أو غضب أمير بدليل حصرهم مجالها الشعرى فى الاعتذار والاستعطاف(٢) » [صفحة ١١٨] .

هذا على المستوى النظرى أما على مستوى التطبيق فتقول :

« وفى مقاييسهم أن مدائح « الكميت » فى بنى أُمية أجود من هاشمياته مع تقريرهم أنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أُمية بالرأى والهوى » (٣) .

ولا يرى « ابن قتيبة » علة لجودة مدائحه « إلَّا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على عاجل الآخرة » .

و « ذو الرُمَّة » يؤخره عندهم عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع على ما نقلنا من كتاب الشعر والشعراء كأنما كان القصور فى المديح والهجاء — حيث يخون الطبع — جريمة لا تغتفر عند القوم ! .

وكأنما كان لا يكفيه أن يتفوق على كل الشعراء فيما يواتيه طبعه عليه من فنون القول ! .

وبقى أن نسأل : أين موضع « ذو الرمة » عندنا ؟ هل تزحزح

عن مكانه الذى حدده له « ابن سلام » « وابن قتيبة » فى العصر العباسى ؟ .

هل فكر دارس منا فى العناية بتراثه الفنى ؛ ووزنه بمقياس غير ذاك الذى ورثناه من قدامى النقاد ؟ » صفحة ١١٨ ، ١١٩ .

نرى هنا كيف أن النقاد قد جعلوا من الشاعر مجرد دمية أو فى أحسن الأَحوال مهرجاً يرضى الأَمير تارة ويضحكه أُخرى ، واستهانوا بمشاعر الأَديب الصادق وحدوا من انطلاقاته وأشواقه ؛ فلم يجد لنفسه بينهم مكانا .

كما نرى أن هذه النظرة قد بقيت كما هى لا تتزحزح حتى عند من يزعمون التجديد .

لقد أغلق التاريخ الأَدبى — قديماً وحديثاً — أبوابه أمام الأُدباء الصادقين وفتحها على مصاريعها لأَصحاب المديح الكاذب من جهة وأهل التهريج والمجون من جهة أُخرى .

ونعود لعرض مقاييسهم المنحرفة .

* * *

— ٤ —

« أَعذب الشعر أَكذبه »

وأضلتهم مقاييسهم النقدية ، فلم يدركوا أن الصدق الوجدانى عنصر أصيل جوهرى فى الفن ، ولم يلفتوا إلى أن الشاعر حين لا يقول عن طبع ويصدر عن وجدان ، فقد ما به قوام الأَصالة الفنية . « فأَعذب الشعر أكذبه » عند من وصفهم قدامة بن جعفر بأَنهم أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً . والآمدى يقول : الشاعر لا يطالب بأَن يكون قوله صدقاً . ومن فضائل الشعر عندهم « أن الكذب الذى أجمع الناس على قبحه حسن فيه ، وحسبك ما حسن الكذب واغتفر له قبحه كما قال ابن رشيق فى باب فضل الشعر .

والغلو ميزة تحسب عندهم للشاعر كما قرر « قدامة » وبناء على ذلك فإن أشعر الشعراء هو أكثرهم جنباً وذلاً ومهانة .

« فمداراة السلطان واجبة ، والتصدى لمعارضته حمق ، حتى لو كانت المعارضة دفاعاً عن مبدأ واستبسالاً فى سبيل عقيدة كما يقول ابن رشيق . وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا هذا الباب أو تعرض له – يعنى السلطان – وما للشاعر والتعرض للتحوف ؟(١) وإنما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله وكل شيء محتمل إلا الطعن فى الدول فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة ، فتعصب المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوب وأعذر له من كل جهة » .

---

(١) من الحيف وهو شدة الجور والظلم مختار الصحاح ١٦٥ ؟

والخلاصة :

« أن الأَدب لم يكن لينجو من نكر الحياة العامة التى أرادت له أن يتخلى عن عنصر الصدق الفنى الذى هو مناط فنيته وجوهر أصالته ، وعزلت الأَدب عن مكانته الرفيعة من القيادة والسيادة ليكون ظلاً للسلطان وبوقاً للحاكم ، وداعية لكل مذهب وكل وضع . وتجارة لفئة من المرتزقة المأَجورين » . [ص ١١٤] .

فإذا تساءلنا الأَن فقلنا :

أى مكان إذن للأَديب الصادق الذى لم يرض أن يكون داعية لطاغية أو مطرباً لأَمير أو نديم خليفة أو مروجاً للهو والشر والمجون ؟

وهل يمكن لقصيدة سامية تحلق بأَشواقها فى السماء أن تجد مكاناً وسط هذا الركام الذى أسموه ظلماً وافتراءً بتاريخ الأَدب العربى .

« إن المقاييس التى احتفت بشعراء المديح وأبواق البلاط حيث لا مجال للصدق الفنى والحرية الوجدانية ، لا يمكن أن تعترف بشاعر وجد نفسه ، ووعى ذاته ، واعتز بكرامة عقله وفكره ولسانه فلم ينزل عنها لمشتر ، ولم يساوم عليها فى سوق النفعية والنفاق » [ص ١٤٥] .

إننا الآن نقول فى يقين — بعد أن زادت الرؤية وضوحا : إنه لابد من تحرير تاريخنا الأَدبى من تلك الآفات لينطلق من ظلماته إلى النور .

وإنى لأرجو أن يكون تقديمى وتحليلى لقصيدة سامية مضيئة محلقة فى أجواء السماوات العلى – لم تجد مكانها بالطبع فى وسط تاريخنا الأدبى .

أرجو بتقديمى لهذه القصيدة أن أخطو خطوة جديدة سديدة للانطلاق من واقعنا الأدبى المتخلف إلى آفاق جديدة وقمم سامقه .

لقد حُرم معظم الناس حتى المعنيون منهم بالأدب من أنوار هذه القصيدة التى كان من الممكن أن تكون رائدهم إلى بلوغ أرقى درجات الأدب والشعور .

لا أقول هذا صدوراً عن حبى الجم للإمام ابن القيم، ولاعن إعجابى الشديد بقصنيدته الرائعة بقدر ما هى الرغبة الصادقة لوضع أنموذج صادق لأولئك الذين وقعوا فريسة لأشباح لا تقدم للناس إلا السىء ولا يحجبون عنهم إلا النافع المفيد ؛ هوى منهم أو فساد ذوق .

* * *

وكذلك لأن القصيدة تعتبر – بحق – تمثيلاً صادقاً واستجابة حقيقية لدعوة جليلة أخرى ،رفع لواءها الاستاذ الناقد والكاتب الإسلامى الشاعر الكبير « سيد قطب » .

فما هى هذه الدعوة ؟

وكيف تعتبر قصيدة « الرحلة إلى بلاد الأشواق » تمثيلاً صادقاً لها ؟

* * *

نستطيع أن نلخص هذه الدعوة بأنها المطالبة بأن يستفيد الأدب العربى من طريقة القرآن الأساسية – وهو كتاب العرب الأول » وتلك الطريقة الأساسية هى طريقة التصوير والظلال .

يقول الأستاذ « سيد قطب » تحت عنوان :

* * *

الصور والظلال فى الفن (١)

« لقد اختار القرآن الكريم طريقة التصوير والتخييل وجعلها قاعدة غالبة فيه للتعبير فى مواضع التأثير » .

« ومن العجيب أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأَول ثم لا يستفيد الأَدب العربى من طريقته الأَساسية شيئاً بعد نزوله ، وتيسيره للذكر فى أيديهم . إلا فلتات فى ديوان كل شاعر هى امتداد للتصوير فى الأَدب الجاهلى وعلى طريقته لا على طريقة القرآن الرفيعة .

ويعلل « سيد قطب » لهذه الظاهرة بقوله :

« ولعل مردَّ ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأُفق الرفيع فى ذلك الأَوان » .

فإذا أضفنا إلى هذا التعليل للأَستاذ « سيد قطب » خضوع الأَدب العربى لتالك المقاييس المنحرفة التى سبق عرضها ومناقشتها ؛ كان ذلك كله سبباً لأَن يُقتل الإبداع قتلا ، فضلا عن أن يستلهم أو يقبس شيئاً من أنوار القرآن .

يقول الأَستاذ « سيد قطب » :

« ونحن نجد القرآن بين أيدينا وهو يتبع فى التعبير طريقة التصوير الحى الذى يزيد مساحة المعنى النفسية ، ويحيله صورة حيَّة حتى فى الأَغراض الدينية البحتة .

---

(١) كتب وشخصيات . دار الشروق .

بين أيدينا هذا الكتاب الكريم يتحدث بأبرع طريقة فنية فى الأداء فلا ننتفع بها ، ونرجع فى اقتباس طرق تعبيرنا إلى الشعر العربى ولا سيما فى العصر العباسى ، حينما تأثر الشعر بالفلسفة والمنطق وبرزت فيه المعانى الذهنية بروزاً واضحاً ، ولولا أصالة الطبع فى بضعة شعراء فى هذا الوقت ، لقضت الطريقة الذهنية فى الأداء على الطابع الفنى تمام القضـــاء .

« إننى أدعو إلى تملِّى طريقة القرآن فى التصوير والتظليل . فهى أعلى طريقة فنية للأداء . وإذا كانت وجهة القرآن الدينية ، قد جعلت هذه الطريقة خاصَّة بأغراض الدعوة الإسلامية ، فإن نقلها إلى عالم الأدب خليق بأن يرفع هذا الأدب إلى آفاق رفيعة لم يصل إليها حتى الآن .

فهلموا إلى ذلك النبع الأصيل : نبع القرآن » (١) .

تلك إذن هى دعوة الأستاذ « سيد قطب » للاستفادة القصوى من اتباع طريق القرآن الغالبة وخصيصته الشاملة التى يتفرد بها القرآن ليرتفع بها الأدب عاليًا .

وبعـــد :

فهاتان دعوتان :

الأولى : لتخليص الدرس الأدبى من عوامل الفساد والتشويه

---

(١) كتب وشخصيات . ص ٤٩—٥٠ .

وإخراجه من الظلمات إلى النور وقد رفعت لواء هذه الدعوة سيدة جليلة لها شأنها ومكانتها فى مجال الدراسات الأدبية .

والثانية : دعوة حثيثة للاستفادة من طريقة القرآن الرفيعة فى التصوير الحى والظلال المثيرة لمكامن الشعور فى النفس والوجدان .

وقد رفع لواءها أستاذ وأديب وناقد كبير هو الأستاذ « سيد قطب ».

والآن . . . هل تجد هاتان الدعوتان طريقهما إلى الآذان ؟ .

إن طبيعة الأمور تحتم ذلك علينا جميعاً ولكن العوائق كثيرة فهل نتخطاها ؟ .

هل تبذل الجهود الصادقة وتتآزر الإمكانيات المخلصة لتحقيق هاتين الغايتين الشريفتين ؟

أم سيظل تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات ومحبو الأدب غارقين فى نماذج شائهة للمديح الكاذب والمجون القبيح ، محجوبين عن أنوار الأدب الصادق المحلق فى آفاق السماء .

وتظل كتب الأدب حكراً على تلك النماذج المنحرفة الناشئة عن موازيين فاسدة حصرت الشعر فى المدح والهجاء والمجون فإذا أفسحت مجالا ضيقاً لغرض آخر كالزهد مثلاً لم تقبل منه إلا نماذج عقيمة متجمدة ومتكلفة لا تعبر عن مشاعر صادقة وأشواق سامية كتلك التى نجد دلائلها فى قصيدة :

« الرحلة . ... إلى بلاد الأشواق » ميمية ابن القيم .

وقبل أن نشرع فى عرض القصيدة وتحليلها بمشيئة الله نقدم بين يديها هذا الفصل فى استكشاف جو القصيدة ومعرفة المشاعر التى سيطرت عليها وشاعت فى حناياها . كما نفسر فى هذا الفصل سر اختيارنا للاسم الذى سميناها به وهو :- « الرحلة إلى بلاد الأشواق » .

* * *

جو القصيدة وسبب التسمية

تسيطر فكرة الغربة والاغتراب على الإمام ابن القيم سيطرة تامة وتستولى عليه مشاعر هذه الغربة استيلاءً عظيماً . وشواهد هذه السيطرة وهذا الاستيلاء مبثوثة فى معظم كتبه وفى حنايا شعره . وتلك جولة نتتبع فيها دلائل هذه الغربة معه .

ولنستمع إليه فى البداية يعبر عن هذه الغربة فى صدق ومعاناة يقـــول :

« إن الناس كلهم فى هذه الدار غرباء فإنها ليست لهم بدار مقام . ولا هى الدار التى خلقوا لها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل » (٢) وهكذا هو فى نفس الأمر ؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حق المعرفة . . ولى من أبيات فى هذا المعنى :

وحيَّ على جناتِ عدْنٍ فإنهـــــا ... مَنازِلُك الأُولى وفِيها المخيَّمُ
ولكننا سبْى العدِّو فهل تُرى ... نعودُ إلى أوْطاننا ونسلِّــمُ
وأى اغترابٍ فوق غربتنا التى ... لها أضْحت الأَعداءُ فينا تحكَّم ؟
وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نــأَى ... وشطَّت به أوطانه ليس بنعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر إلا بعد ما يتـأَلَّم .

---

(١) يعنى الدنيا .
(٢) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (١١٠/٨) باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « كن فى الدنيا كأنك غريب » .

وكيف لا يكون العبد فى هذه الدار غريباً ، وهو على جناح سفر لا يحمل عن راحلته إلا بين أهل القبور ؟ (١) .

وهكذا نلمس شدة إحساس الشاعر ومعاناته من الاغتراب نثراً وشعراً .

وإنه ليترقى فى درجات شعوره بالغربة حتى يصل إلى درجة لا يحملها علم ولا يظهرها وجد ، ولا يقوم بها رسم ولا تطيقها إشارة ولا تشملها عبارة . وهى أشد الغربة (٢)

ويصف حالة هذا الغريب فيقول :

إن أبناءَ الدنيا لا يعرفونه ؛ لأَنه ليس منهم . وأهل الآخرة — العباد الزهاد — لا يعرفونه ؛ لأَن شأْنه وراء شأْنهم فهو يرى الناس . والناس لا يرونه .

كما قيـــل :

تستَّرت من دهرى بظلِّ جَناحه   فعيْنى تَرى دهْرِى وليس يرانى
فلو تسأَل الأَيام : ما اسمى ؟ لمادرت   وأين مكانى ؟ ما عرفن مكانى

وهو يرى أن هذة الغربة ملازمة للإنسانية منذ بدء الخليقة فيقول :

(ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأَبيه « اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها) .

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٠٠ ، ٢٠١) مكتبة السنة المحمدية .
(٢) السابق (٣/٢٠٥ (بتصرف يسير .

بل إنها وراء حكمة الكون التى من أجلها خلق الله آدم وذريته « فأراد الله سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد ، وعلم سبحانه بسابق علمه أنه اضعفه وقصور نظره ؛ قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس .

فإن النفس مولعة بحبِّ العاجلة وإيثارها على الآخرة ؛ فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعدَّ له عيانا فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً ؛ فإن محبة الشيء وطلبه والشوق إليه من لوازم تصوره ، فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكد صبر عنه (١) وهذا لأن النفس ذواقة تواقة فإذا ذاقت تاقت فاقتضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه إياها ، ثم قصَّ على بنية قصته فصاروا كأنهم مشاهدون ، لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خُلق لها وخُلقت له وسارع إليها فلم تُثْنه عنها العاجلة بل يعدُّ نفسه كأنه فيها ، ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقرله قرار حتى يرى نفسه فيه .

كما قيـــل :

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل

---

(١) سوف تجد صدى هذا الشعور الجارف فى القصيدة .
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٩–١٠) .

ولى من أبيات بهذا المعنى :

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم »

هذا النص من كتاب مفتاح دار السعادة يبين لنا بواعث الغربة عند ابن القيم بعد أن عاش اللذة فى المنزل الاول — بحسب تعبيره — وذاق حلاوتها فلما أُهبط من منزله الاول (فى صورة أبيه آدم) لم يفارقه الشوق ، ولم يغادره الحنين ؛ ولهذا فإنه دائم التطلع إلى دياره الأُولى يتعلق بها أشد التعلق . ويكابد من أجل الوصول إليها المشاق والمخاطر .

وبهذا ننتقل مع الشاعر من مرحلة الشعور بالغربة ومعاناة الاغتراب إلى مرحلة الأَشواق والحنين وهذا ما يعبِّر عنه فى قصيدة أُخرى فيقول :

منازلا كان يهـواها ويألفهـا أيامَ كان منالُ الوصل عن كَثَب (١)
فكُلما جُلِّيت تلك الربـوع لـه يهْوِى إليها هوىً الماء فى صبَب (٢)
أحْيا لهُ الشوقُ تذكار العهودِ بِها فلو دعا القلبَ للسُّلوان لم يُجِب (٣)
هذا وكم منزلٍ فى الأَرض يألفه وما له فى سواها الدهر من رغب (٤)
ما فى الخيام أخو وَجْد يُريحك إنْ بَثَثْتَه بَعْضَ شأْن الحبِّ فاغترب (٥)

---

(١) كثب : قرب .

(٢) جليت : أظهرت . ويهوى إليها هوى الماء فى صبب يعنى يسقط إليها مندفعاً كالماء المسكوب .

(٣) السلوان . دواء يسقاه الحزين فيسلو أى ينسى (لسان العرب ٢٠٨٥/٣) دار المعارف .

(٤) رغب : إرادة .

(٥) وجد : حزن . بثثته : بث الخبر أى نشره (مختار الصحاح ص ٤٠) .

إن التجربه والمعاناة تلح على الشاعر إلحاحاً عظيماً . وفى هذه الأَبيات نلمس مدى الاشتياق والتعلق بالمنازل الأُولى ومدى الشعور بالاغتراب حتى إنه لا يجد من يبث إليه بعض شأْن الحب ، الحب العظيم الذى ملأَ قلبه وفاض على جوارحه والشوق والشعور بالاغتراب يقوده إلى الرحلة . . .

وأسر فى غمرات الليل مهتديا   بنفحة الطيب لا بالنار والحطب(٣)

ويقول : ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تطمئن إلا فى وطنها ومحلِّها الذى خلقت له .

وإذا كانت الروح تحنُّ أبداً إلى وطنها من الأَرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى وكثيراً ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ، وهى دائماً تحنُّ إليه مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب فى مفارقته إلى مثله .

فكيف بحنينها إلى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى . فالعبد المؤمن فى هذه الدار سبى من الجنة إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه إلى داره التى سبى منها وفَرِّق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه . فروحه دائما معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا . وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحاً وإيلافه وطناً غيره أبت ذلك روحه وقلبه كما قيل :

---

(٣) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٨٧ . المطبعة السلفية .

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً فى هذه الدار أين حل منها فهو فى دار غربة .

وقد يأخذ الشوق والالتياع إلى بلاد الاشواق عند ابن القيم صورة أخرى . فنراه يهيم حباً وشوقًا بالبيت الحرام كما فى كتابه القيم زاد المعاد (١) :

« ولقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص (أى تفضيل البيت الحرام على سائر البقاع) فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أى يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً (١) بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها حتى يعودَ إليها الطرف مشتاقًا

ثم تزداد هذه اللوعة حدّةً فيقول فى عاطفة حارة :

« فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ورضى المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب

---

(١) المطبعة المصرية (١/٩) .

(١) الوطر : الحاجة والجمع أوطار، وقضيت وطرك إذا نلت بغيتك وحاجتك المصباح المنير ١٠٢٩ .

والأوطان مقدماً بين يديه أنواع المخلوف والمتالف والمعاطب والمشاق . وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه او ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعيم المتحلية (١) وترفهم ولذاتهم

وليس محباً من يعد شقاءه عذاباً إذا ما كان يرضى حبيبه(٢)

ونلحظ أن طبيعة الشوق إلى بلاد الأشواق وإلى البلد الأمين واحدة وإن اختلفت الصورة فى كل منهما ؛ وذلك لأن الباعث إلى الاثنين هو محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والقصيدة تجمع بين الشوقين فى براعة فنية وصدق .

ثم يأخذ الشوق عند الشاعر مظاهره العملية فنراه يعزم على مفارقة دار الغربة ، راكباً مطايا الأمل ، مقتحماً المشاق فى سبيل الوصول إلى بلاد الأشواق .

« فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار . والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة إنما ذلك بعد انتهاء السفر .

ومن المعلوم أن كل وطأة قدم (٣) أو كل آن من آنات (٤)

---

(١) تحلت المرأة : لبست حلياً أو اتخذت حليا ، وتحلى بالحلى أى تزين ويقال امرأة متحلية .

(٢) زاد المعاد (٩/١) .

(٣) وطأة قدم :

(٤) آن : وقت من أوقات السفر .

السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل وإذا نزل ، أو نام ، أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير » (١) .

فلابد من السفر وتخطى الصعاب . ولابد من الاستعداد . إنها فكرة السفر إذن التى تلح على الشاعر بعد أن سيطر عليه الشعور بالغربة وبعد أن هزه الشوق إلى بلاد الأفراح . . . استمع إليه !

« الناس فى هذه الدار على جناح سفر كلهم وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه . وطالب الله والدار الآخرة ، إنما هو ظاعن إلى الله فى حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه فهذه همته فى سفر وفى انقضائه .

« يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى * » . (٢)

ومما يؤكد لك مدى استغراق الإمام ابن القيم فى شعوره بالغربة وتعلق أشواقه ببلاد الأفراح وعزمه على السفر أن تنظر فى اختياره لأسماء كتبه فترى معظمها يدور حول هذا المحور : محور الرحلة والتشوق والسفر فكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » يعرض لك فى عنوانه القافلة يحدوها الحادى وهى تواصل المسير فى شوق الوصـــول !

---

(١) الفوائد لابن القيم صفحة ١٩٠ . مكتبة الرياض الحديثة .

(٢) سورة الفجر الآيات ٢٧—٣٠ .

وكتاب « زاد المعاد » وثيق الصلة بالرحلة حيث الحاجة إلى الزاد .

وكتاب طريق الهجرتين ألفه لبيان وجوب الهجرة إلى الله والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم . بما توحى الهجرة من مفارقة الأوطان ومعاناة الأخطار فى سبيل الوصول .

وكتاب « مدارج السالكين » يوحى اسمه بالرحلة والسير الذى تقطع فيه المراحل حتى يصل السالك إلى أعظم الدرجات ، إذن فالرحلة عند ابن القيم فكرة جوهرية نشأت عن شعوره الحاد بغربته فى الدنيا وأثارها شدة شوقه إلى بلاد الأفراح والأشواق .

يقول ابن القيم :

« يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة . قد رُفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير » .

« فتعلق بحبل الرجاء وادخل فى باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور ، نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها (١) ويصف حال الفقير الخالص بكليته لله تعالى سبحانه فيقول : « مسافر فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه ، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه ، قد رفع له علم الحب فشمر إليه ، وناداه داعى الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب منادى المحبة إذ دعاه حى على الفلاح ، ووصل السُّرى (٢) فى بيداء

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ٢٤٢ . دار الكتب العلمية .

(٢) السرى : جمع سرية وهى قطع الليل بالسير . المصباح المنير ٤٢٠ .

الطالب ، فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السُّرى عند الصباح (٣) .

وبعد أن تتبعنا تطور الفكرة من شعور باغتراب إلى شوق وحنين ثم إلى سفر ومسير . . . يقـــول :

« إن السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح . وبقى عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافراً فى الطريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأُخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ، ومواصلة الشد ، والرحيل ، وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ، فهو يقول : يا نفس أبشرى فقد قرب المنزل ودنا التلاقى . فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأَحبة فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة وتلقتك الأَحبة بأَنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فاللهَ اللهَ لا تنقطعى(١) فى المفازة فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين . فإن استصعب عليه فليذكر ما أمامها

---

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٤٨–٤٩ . المطبعة السلفية .
(١) الحديث لا يزال موجهاً إلى النفس .

من أحبابها وما لديهم من الإكرام والإنعام وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء . فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها فى الطلب ، ولابد لها من قِسْمٍ من هذه الأَقسام الثلاثة ؛ فلتختر أيها شاءت . وليجعل حديث الأَحبة حاديها وساقيها ونور معرفتهم ، وإرشادهم هاديها ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها ، وشرابها ، ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ، ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فأَلم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ ! وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هى من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة ، والوصول إليهم .

فيا قرة عينه إذ ذاك ويا فرحته إذ يقول :

« ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين »(١) .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع ، وذوب النفس ، وبطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً ، وسَحَرا ، قرب من الدار ، وتلطفت تلك الكثافة ، وذابت تلك الخبائث ، والأَدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنساً ، وكثافته لطافة ، ودرنه طهارة(٢) .

---

(١) اقتباس من سورة يس الآية ٢٦—٢٧ .

(٢) طريق الهجرتين ص ١٧١—١٧٢ .

على هذا النحو . . وبهذا الأسلوب العذب . . والمناجاة الصادقة . نتعرف روح ابن القيم ونكتشف شيئاً من أعماقها وأغوارها .

إنه يمدنا بتفصيلات نفسية دقيقة وعميقة . . نتدرج معه درجة بعد درجة ونعيش معه ونعاين الطريق . . ومسارب الطريق حتى تطوى المسافات وتبدو الخيام . ويهنأ حينذاك بالسلامة وفرحة الوصول .

إنه يشركنا معه فى سيره وطريق سفره . يتعهدنا بالنصائح والتوجيهات التى لا يستغنى عنها مسافر . .

ألسنا جميعاً مسافرين كما يرى الإمام ابن القيم وذلك منذ أن استقرت أقدامنا فى هذه الدار . فنحن مسافرون فيها إلى ربنا . . ومدة سفرنا هى أعمارنا التى كتبت لنا .

ورحلة السفر لا تخلو من مصاعب . . لابد من تخطيها فى صبر ولا يعين على هذا الصبر إلا شعور بالمحبّة التى هى مطايا المسافرين . والشعور بالمحبة فى غاية الأهمية فى رصدنا وكشفنا لطبيعة السفر عند ابن القيم . لأن المحبة هى الوسيلة والغاية فى آن .

كل هذا وأعمق منه بكثير يلوح لنا ظاهراً أو خافيا من أسلوب ابن القيم العذب الجميل . الذى ينفذ ويتغلغل فى أعماق النفوس .. ويستلب المشاعر .

إن الغربة التى أحسها الشاعر قادته إلى الشوق ثم حثه الشوق على الرحلة والسفر كل هذا فى شعور بالمحبة السامية القدْر ، الجليلة الشأن .

وكما أن الشوق يأخذ عند الشاعر صوراً عدة كالتشوُّق إلى بيت الله ، والتشوُّق إلى جنة الله والحنين إلى لقاء الله سبحانه ونعمة النظر إلى وجهه الكريم كذلك تأخذ المحبة صورها التى تلتقى فى بؤرة واحدة وتصب فى معين واحد .

فقد يهيم الشاعر حباً ببيت الله . . وقد يهيم حباً بالحور العين فتراه يتفنن فى وصف حسنهن والتشويق إلى الوصول إليهن فيقول :—

يا خاطب الحور الحسان وطالباً لوصالهن بجنَّـــة الحيوان(١)

لو كنت تدرى من خطبت ومن طلبت بذلت ما تحوى من الأثمان
أو كنت تعرف أين مسكنها جعلت السعى منك لها على الأجفـــان

أسرع وحث السير جهدك إنمـا مسراك هذا ساعة الزمان

ثم ينقلنا إلى جو الرحلة بعد التمهيد بذكر المحبة :

واجعل نعوت جمالها الحادى وسر نحـو الحبيب ولست بالمتوانى

بل إنه ليمزج حبه بالبيت الحرام ، ولذته بالطواف حوله بحبه للحور العين والجنان فيقول :

---

(١) الحيوان : اسم يقع على كل شىء حى ، وسمى الله عز عز وجل الآخرة حيوانا فقال : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » .
قال قتادة : هى الحياة (لسان العرب (١٠٧٧/٢)) .

يا من يطوف بكعبة الحسن التى حُفَّتْ بذاك الحجر والأَركان(١)
ويظل يسعى دائماً حول الصفا ومحسر مسعاه كل أوان
ويروم قربان الوصال على منى والخيف يحجبه عن القربان(٢)
فلذا تراه محرماً أبدًا وموضع حله منه فليس بدان »

وهكذا يستعير مصطلحات الحج والطواف فى هذا المقام مما يدل على شدة تعلقه وعظمة محبته فيقول :

يبغى التمتع مفردًا عن حبه متجردًا يبغى شفيع قران
ويظل بالجمرات يرمى قلبه هذى مناسكه بكل زمان
والناس قد قضُّوا مناسكهم وقد حثُّوا ركائبهم إلى الأَوطان
وَحَدَتْ بهم هممٌ لهمْ وعزائمٌ نَحْو المنازِلِ ربّةِ الإِحسان

إنها الرحلة أيضاً ، وحث الركائب ، وحداء الهمم ، وشحذ العزائم للوصول إلى منازل الإحسان .

رفعتْ لهمْ فى السيْر أعلامُ الوصال فشمِّروا يا خيبة الكسلان
ورأُوا على بعدٍ خياماً مشْرفاتٍ مشْرقاتِ النُّور والبرهان
فتيمَّمُوا تلك الخيام فآنسوا فيهن أقماراً بلا نقصان »

نحن إذن أمام شاعر ليس كأَحد من الشعراء . إنه إنسان محب صادق الحب لا يفتر لحظة عن إعلان هذا الحب بكل وسيلة

---

(١) الحجر : حطيم مكة وهو المدار بالبيت . المصباح ص ١٩٠ .
(٢) الخيف : هو مسجد الخيف بمنى . المصباح ٢٨٧ .

صادقة معبرة . إنسان له أشواقه وله طموحاته التى لاتحدها دنيا محدودة بل تتسع لها آفاق السماء .

وسوف يتضح لنا ذلك كله وأكثر منه فى استعراضنا لقصيدته العظيمة التى أسميناها « الرحلة إلى بلاد الأَشواق » .

والآن لعلنا قد وقفنا على سر تسمية القصيدة بهذا الاسم . وأدركنا أنها ليست غريبة على روح شعر ابن القيم ولا بعيدة عنه ، فهى تعبر عن قيمة أصيلةٍ عنده وفكرة محوريةٍ قد تصلح أن تكون مفتاحاً لشخصيته الإنسانية العظيمة .

والشطر الأَخير فى العنوان المختار قد اقتبسته من تسمية ابن القيم نفسه لكتابه الذى ألفه فى هذا الشأن .

« حادى الأَرواح إلى بلاد الأَفراح » على أن تعرف أن بلاد الأَفراح ما هى إلا الصورة الرمزية والمعادل الموضوعى لأَشواق الإمام ابن القيم إلى الوصول إلى أشرف الغايات وأعلى الدرجات . كما سنرى فى القصيدة إن شاء الله .

وفى القصيدة سوف يأَخذنا الشاعر إلى رحلة أشواقه يشركنا معه فى رحلته ، يأَخذ بأَيدينا حيناً ، ويناجينا أحياناً ، ويحذرنا من مخاطر الطريق تارة ، ويصبرنا على مشاقه تارات . فيكون لنا نعم الحادى الأَمين ، والدليل الصادق الذى يأْخذ بيد قافلته المتعبة المتغربة إلى النجاة والوصول .

« القصـيدة »

استعراض عـام

« الرحلة إلى بلاد الأَشواق » أو القصيدة الميمية لابن القيم قصيدة زاخرة بمشاعر الشوق والحنين والرغبة ، فوراء كل كلمة يقبع إنسان يعانى ويتـألَم ويشتاق ، والقصيدة كذلك غنية بصورها وظلالها : كلماتها مكثفة بإيحاءات جمة تثير فى النفوس من المشاعر ما تثير ، صورها حية — تقدم الك المشهد فتتمثله أمامك حياةً كاملة فيها الحركة ، وفيها الدفء ، وفيها الجمال .

والقصيدة طويلة . . ولكنها متلاحمة ، متجانسة أحسن ما يكون التلاحم والتجانس ، تنساب فيها عاطفة عارمة قد تـأْخذ صوراً متعددة وأشكالاً متتابعة ولكنها — أبداً — لا تفقد وحدتها وتجانسها .

فمنذ مطلع القصيدة سترى أنك قد انتقلت من دنياك جميعاً إلى صحبة عاشق متيم ، أضناه الشوق وعذبه الوجد

« إذا طلعت شمس النهار فإنهــــا أمارة تسليمى عليكم فسلموا »

تقرأ هذا البيت فإذا أنت معه بقلبك وكيانك . وإذا أنت تتـأمل معه حركة طلوع شمس النهار التى يرتقبها الشاعر ارتقاباً فى لهفة وانتظار . . لماذا ؟

لأَنها هى علامة التسليم ، وآذان الوصول ، فلا يبقى الك إلا أن تنتظر مع الشاعر رد التحيَّة والسلام ، ثم تقطع شوطاً مع الشاعر فتقف

على شيء من سر تشوقه وأسباب التياعه ، فإذا السرُّ محبةٌ آسرة ، بلغت من القوة حداً يضعف القلب عن تحمله . وأى قلب ؟ إنه قلب محبٍّ رقيق لا يتحمل مس القميص ، ولكن الله برحمته يلطف بهذا القلب فيجعله يخضع ويستكين لصولة تلك المحبة فيتقدم فى إذعان ودونما تلعثم !

وقد ذَلَّل الله سبحانه لتلك المحبة نفوساً — ومنها نفس شاعرنا — تأْنف الذلة لغير تلك المحبة بل ترى المنايا أهون لها من أى ذلة لغير تلك المحبة العظيمة .

فيا أيها الأَحباب هلى تشفقون لحالى ؟ وهل تسمعون مقالى ؟ إنكم أنتم أحبابنا فى كل حال من قرب الديار بعدها .

وإنكم أنتم أحبتنا فى كل حال من مغيب وحضور .

وكما كان طلوع شمس النهار أمارة التسليم،فإن انتشار نسمات الريح هى شهادة تلك المحبة والصبابة والشوق ، بل إنها — أى نسمات الريح — لتقوم عن الشاعر بمهام عديدة فتتحمل عذابات تلك المحبة وتنشر أحاديث الوجد وأسرار الشوق، فإذا واصلت السير مع الشاعر مرحلة أُخرى ستشفق عليه وتأْسى لحاله وأنت تراه يعلل نفسه ويخادعها بأَمنيات التلاقى والوصال سالكاً فى سبيل هذا طرقاً شتى من الوهم والتوهم والإيهــام .

فهل يفلح فى هذا ؟

فليجرب وسيلة أُخرى وليتبع طرفه وجهة الأَحباب ، فيسائل

عنهم كل غاد ورائح . وليومىء إلى أوطانهم فى ترقب واستطلاع دائم . وأخيراً فليجرب ذلك الدواء الأخير . . « الصبر » !

« وكم يصبر المشتاق عمن يحبـه وفى قلبه نار الأسى تتضرم »

أين نحن الآن ؟

لقد وصل بنا الشاعر – فى رحلته النفسية – إلى هذه الغاية فهل يتركنا عندها ؟

كلا وإنما ينقلنا فجأة إلى مشهد آخر يحسبه المتعجل بعيداً عن الغاية التى وقفنا عندها ، ويراه المتأمل مناسباً لها كل المناسبة ، ومكملا لها فى رحلة الصعود والارتقاء .

إنه مشهد الحجيج !

وياله من مشهد زاخر بالحركة والدفء والحياة ! إنه تمثيل صادق وحى لرحلة إلى الله ، تتعانق فيها المحبة مع التلبية مع الرضى .

ويبدأ المشهد بعرض صورة حية للمحبين وقد كشفوا رؤوسهم وهم يهلون بالتلبية رضى ، ومحبة ، وقد فارقوا أوطانهم وغادروا لذاتهم وجاءوا من الأقطار والفجاج فى تسليم مطلق لرب العالمين . إنها رحلة روحية تُنْسَى فيها الآلام ويرتحل النصب كأن لم يكن له وجـود .

ولكن إذا زالت آلام الجسد برؤية البيت الحبيب . فهل تزول معاناة القلوب . ؟

فلله كم من عبرة مهـــراقـــة وأُخـــرى على آثارها لا تقدم
وقد شرقت عين المحب بدمعها فينظر ما بين الدموع ويسجم

انظر إلى روعة التصوير ، ورسم المشاهد ببراعة فائقة ، فهذه عبرة (دمعة) تسيل لم يستطع صاحبها أن يكفكفها ، أما أختها فهى واقفة على عينه لا تزال – لا تتقدم استحياء ، وهى كذلك لا تستطيع أن تتأَخر ، فتبقى فى عين المحب تستقبل أخوات لها حتى تشرق عينه بـالدموع .

وهذا يرسم لك مشهداً معبراً غاية التعبير ، إن المحب لا يذرف الدموع هنا ولا يجهش بالبكاء ، إنه موقف نظر وتـأَمل لا موقف عويل وبكاء فلم يقل إن الدموع تنهمر من عينه انهماراً وإنما صورها لنا كما صور بين دمعه تسيل ، ودمعة تخجل وتستحى ، ولإن المحب هنا لم يقصد للبكاء وإنما غلبته هذه العبرة المهراقة فكأَنه لم ينتبه إليها ! ثم يريد أن ينظر ، فيرى المشاهد أمامه ولكن من خلال دموعه التى يبدو وأنها زادت الآن جداً ، ويبدو أنه لم يعد يستطع كفها عن السيلان . وتخيل هذه الرؤية المنبهمة ، من خلال الدموع ، ترى البيت تماوج صورته من خلال طبقة الدموع الشفيفة ،وفلتواصل العين معاينة البيت حتى يزول ظلامها . وليواصل القلب الكئيب الطواف حوله حتى تزول آلامه جميعاً ، ولن تشبع العين من المعاينة ، ولن يمل الفواد من الهيام حتى تمتلىء العين حسناً ويزداد الفؤاد اشتياقًا « والشوق أعظم »

فإذا ساءلنا الشاعر وقلنا : لماذا كل هذا الحب؟ لأَجاب على الفور بقـــوله :

ولا عجب من ذا فحين أضافـــه إلى نفسه الرحمن فهو المعظم
كساه من الإجلال أعظم حـــــلة عليها طراز بالملاحة معلم

لقد عظم البيت فى عين المحب لما علم بإضافته إلى الرحمن . وكفى بهذه الإضافة شرفاً ، وكفى بها تعظيماً .

ولنواصل الرحلة . . رحلة أشواق ؛ معالمها المجسدة رموز لمعالم طريق مضىء ..

ويتخذ الشاعر من ذكر عرفات ، ومزدلفة ، ورمى الجمرات ، والنحر وزيارة البيت العتيق ، وسيلة للتعبير عن أشواقه العارمة . ونراه يلح فى استدعاء هذه الرموز باعتبارها مظاهر محبته دلائل أشواقه . .

والشاعر يربط هذا كله برحلته الروحيه ربطاً وثيقاً،فموقف عرفات : تجسيد وتقريب لموقف العرض الأكبر – مع التنبيه على أن يوم العرض أخطر وأعظم .

ويأخذ من الحديث عن وقوف عرفات مناسبة للحديث عن رحمة الله عز وجل ، ومباهاته بعباده ، وإشهادهم بتعميم المغفرة ،والفضل والعطاء .

ويقدم لنا – فى هذا السياق – صورة مكثفة حية تملأ على النفس أقطارها فى مشهد رائع وجليل .

إنه بيت واحد فى القصيدة ولكنه عرض متكامل لحالات شعورية ممتدة تقف أمامها النفس فى انبهار !

فكم من عتيق فيه كمل عتقـــــه وآخر يستسعى وربُّك أرحـــم

أرأيتم . ؟ هذه صورة العتيق كمل عتقه الآن ، فلا تملك النفس هنا إلا أن تتساءل : كيف كمل هذا العتق . ؟ ومتى بدأ ؟ وكم عانى صاحبه فى الحصول عليه ؟

ولكن المشهد يرينا حركة تكميل العتق الآن ويترك للخيال أن يتأمل المشهد من بدايته ، ويصمت حيث يكون الصمت أبلغ من الكلام ، وحيث تكون الإشارة أجدى من التفصيل .

وتلك صــــوره !

ولكن هنالك صورة أُخرى ، لإنسان آخر لم يكمل عتقه بعد ولكنه ما يزال (يستسعى) بما توحى الكلمة من جد وكد ومعاناة ورغبة فى الخروج إلى الحرية والنجاة ! ولا تملك النفس إزاء هذه الصورة إلا الترقب لحركة السعى (هل سيوفق فى سعيه ويحظى بالنجاة ؟) ولا تملك إلا الشفقة بل تكاد تمد يدها لمساعدة هذا المسكين الذى أضناه السعى .

وهنا أيضاً يُترك للخيال أن يكمل بنفسه المشهد حتى نهايته !
وتلك صورة أخرى .

ولكن وراء هذا المشهد الحى المؤلف من الصورتين خلفية تدور أمامها الأَحداث وتظلل تلك الاحداث والصور بجوها الخاص . رسم لنا الشاعر هذه الخلفية بكلمتين : (وربك أرحم) فتظلل الرحمة — رحمة الله — هذا المشهد جميعاً ، وتكون ورء صورة العتيق الذى ظفر الآن بكامل حريته ، ولولاها ما ظفر بهذا ابداً ، وتكون مع الإنسان الآخر

الذى يستسعى ويعانى تأْخذ بيده وتعد وتصبره حتى ينال الظفر والنجاة !

* * *

ثم نواصل الرحلة مع الشاعر ولكن ليس قبل أن يعرض علينا مشهداً طريفاً فيه ترويح للنفوس وإذهاب لبعض همومها ، إنه مشهد الشيطان مغتاظاً ، حقيراً ، يحثو التراب ويلطم وجهه من شدة المرارة والتحسر ، وما ذلك إلا لما (عاينت عيناه من رحمة أتت ، ومغفرة من عند ذى العرش تقسم) وما له لا يبكى ويتحسر وقد خاب سعيه . وانهدم بنيانه الذى قضى العمر فى بنائه — على رأسه ؟

وإليكم الصورة نفسها لأَنها — حقيقةً — تتأَبى على الوصف والشرح

وما رؤى الشيطان أعيظ فى الورى　　وأحقر منه عندها وهو ألأَم
وذاك لأَمر قد رآه فغاظـــه　　فأَقبل يحثو الترب غيظاً ويلطم
وما عاينت عيناه من رحمة أتت　　ومغفرة من عند ذى العرش تُقْسَمُ
بنى ما بنى حتى إذا ظن أنـــه　　تمكن من بنيانه ، فهو محكم
أتى الله بنيانًا له من أساســه　　فخرَّ عليه ساقطًا يتهـدم
وكم قدر ما يعلو البناء وينتهى　　إذاكان يبنيه وذو العرش يهدم ؟

* * *

ولإنجاح هذه الصورة الكلية البارعة لانموذج الشيطان عوامل شتى . جعلت منها مسرحًا للمشاعر ومعرضاً للحركات .

فهذا الشيطان مغتاظ أمامنا لا يرى أغيظ منه ولا أحقر . لماذا ؟

لقد ظل السنين بل الدهور يضع اللبنة فوق اللبنة ، ويقود أصحابه للهلاك خطوة بعد خطوة ، فلما حسب أن بناءه قد تم ، وأن فريسته قد سقطت ، ما يكاد ينعم لحظة بسعادته ، فهذا بناؤه ينهدم فوق رأسه وهذه فريسته تفلت من بين يديه !

ولا يفوتنا أن نلحظ كيف استفاد ابن القيم من التصوير القرآنى فقوله (أتى الله بنيانا له من أساسه) مقتبس من قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأَتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون »(١) .

ولكنه لم ينقل الصورة القرآنية نقلا حرفياً بل أضاف إليها إضافة تناسب المقام هنا فجعلنا نرى البنيان – بعد أن أتاه الله من قواعده – يسقط على من قضى عمره فى بنائه ، ويتهدم على رأسه هو من دون الناس جميعاً ليكون ذلك أبلغ فى الحسرة وأمعن فى المرارة .

وكم قدر ما يعلو البناء وينتهى   إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم ؟

وهكذا يجئ الختام – ختام المشهد – فى حكمة حاسمة لا تخلو من تصوير لحركة البناء والهدم .

ولا يخلو من إثارة مشاعر التهكم بهذا الشيطان ، وأمثاله ممن يريدون ليطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) سورة النحل الآية : ٢٦ :

وقد يقول قائل إن هذا البيت الأخير مأْخوذ من قول الشاعر

متى يبلغ البنيان يوماً تمامــــــه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ولكنه – أى هذا القائل – لن يستطيع أن يمارى فى أن ابن القيم قد وظف الفكرة هنا توظيفاً جديداً فى ختام مشهد طريف .

وأخيراً فإن فى الصورة جواً من السخرية فى تصوير الشيطان، كما نلحظ المفارقة بين فرحته العارمة بإتمام جهوده ورؤية بنائه مختالاً فخوراً ، ثم فى لحظة يخر البنيان فوق رأْسه إذ أنعم الله على عباده بالغفــران .

ولنواصــــل الرحلة !

* * *

ها هم المحبون قد راحوا إلى الجمع ، وباتوا بالمشعر الحرام ، وصلّوا الفجر، وهاهم يتقدمون يحدوهم الشوق إلى الجمرة الكبرى ،ليرموا بها الشيطان – ذلك الذى تركناه فى المشهد السابق مغتاظاً حسيراً – وها هم يصلون العيد بصدور منشرحة ،ثم يتوجهون للنحر، فإذا نحن فى موقف جديد،وأمام مشهد فريد ،ورغم جدته وتفرده إلا أن الشاعر يكون قد مهد له أحسن التمهيد . إنه مشهد النحر ، وكما عودنا الشاعر فإنه لن يلمح فى هذا المشهد ولن يعرض منه إلا ما ينمى به رحلته الروحية، فالنحر هنا رمز للخضوع والطاعة ، والرغبة فى الفداء والاستشهاد .

فلو كان يرضى الله نحر نفوسهم لدانوا به طوعاً وللأَمر سلّموا

ويربط الشاعر هذا الموقف بموقف آخر قريب منه ، وإن كان أرقى منزلة . . . فيقـــول :

كما بذلوا عند الجهاد نحو رهـم لأَعدائه حتى جرى منهم الدَّمُ

فإذا كان المحبون هنا – فى موقف النحر – يشتاقون لبذل نحورهم بدلاً من النعم ،فإنهم فى موقف الجهاد يجودون بها حيث يجرى منهم الدم الزاكى دليل محبة وآية أخـــلاص .

ثم يعود مرة أُخرى لموقف الحج حيث يقدمون دليلاً آخر للمحبة وآية أخرى للإخلاص تناسب موقف الحج .

ولكنهم دانوا بوضع رؤوسهم .

وهكذا نرى الانتقالالسريع بين المشهدين،فإذا هما مشهد واحد . يلتقى فيه دم الأَنعام بدم المحبين،وقطع الرؤوس بوضع الرؤوس حتى ليحق للنفس أن تتساءل : هل نحن فى موقف الحجيج لا نزال أم نحن فى ساحة الجهاد ؟ ! ثم ها هم يقضون تفثهم ويوفون نذورهم ويطفون بالبيت العتيق ملبين دعوة رب البيت زائرين .

(فيا مرحباً بالزائرين وأكرمُ)

ويالها من زيارة بهية ، تحصَّل فيها الجوائز ، وتقسم فيها الفضائل :

ولله أفضال هناك ونعمـــــــةٌ وبِرٌ ، وإحسان ،وجود ،ومرحم

والآن بعد أن تزودوا من أفضال الله ونعمه ، ونالوا المنى والنعيم .

وعادوا إلى تلك المنازل من منى ونالوا مناهم عندها وتنعَّمـوا

إذا نحن — معهم — فى مشهد جديد :

أقاموا بها يومًا ويومًا وثالثــــــا   وأُذن فيهم بالرحيل وأعلموا
وراحوا إلى رمى الجمار عشية   شعارهم التكبير ، والله معهم
فلو أبصرت عيناك موقفهم بها   وقد بسطوا تلك الأَكف ليُرحموا
ينادونه يارب ! يارب ! إننا   عبيدك لا ندعو سواك وتعلم
وها نحن نرجو منك ما أنت أهله   فأَنت الذى تعطى الجزيل وتنعم

والمشهد يتجلى للعين بعد أن هيئته لها الأُذن .

لقد سمعوا آذان الرحيل بعد إقامة ثلاثة أيام ، فتوجهوا على إثر ذلك إلى رمى الجمار ، شعارهم التكبير ، وقلوبهم مع الله ، والله معهم .

وهكذا يجتمع فى المشهد ما يثير السمع والبصر فى آن ، وما يدعو النفس إلى المشاركة فيه من نداء ودعاء (يارب ! إننا عبيدك لا ندعو سواك وأنت تعلم ذلك لا يخفى عليك شىء ، سبحانك أنت العليم الخبير) فالمشهد يزداد وضوحًا وشخوصًا وحياة .

فلو أبصرت عيناك موقفهم بها   وقد بسطوا تلك الأَكف ليرحموا
ينادونه : يارب . . يارب : إننا   عبيدك لا ندعو سواك وتعلم

فترى العين حركة بسط الأَكف لطلب الرحمة ، وتسمع الأُذن ذلك النداء الحثيث : يارب . . . يارب يفيض خشوعًا ورغبة وتضرعًا .

ثم ماذا بعد أن نالوا مناهم وتنعموا فى « منى » ولم يبق إلا وشْك الرحيـــــل ؟

ولما تقضَّوا من منى كل حاجـــه وسالت بهم تالك البطاح تقدموا
إلى الكعبة البيت الحـــرام عشية وطافوا بها سبعاً ، وصلوا، وسلَّموا

وإذا كانت العبارة مأْخوذة عن بيتين قديمين قيلا فى الغزل :

ولما تقضوا من منى كل منسك ومسح بالأَركان من هو ماسح
أخذنا بـأَطراف الأَحاديث بيننا وسالت بأَعناق المطى الأَباطح (١)

فإن الشاعر ينقلها هنا نقلة واسعة لتناسب المقام ويوظفها كأَحسن ما يكون التوظيف .

ولندع القوم فى صلاتهم، وطوافهم، وتسليمهم ماشاء الله لهم أن يصلوا ويطوفوا ويسلموا ، ثم نعود إليهم بعد ذلك لنراهم فى حالة نفسية جديدة أثارتها فيهم لحظات التوديع، ويالها من لحظات !

فلم تر إلا باهتاً متحـــــيرًا وآخر يبدى شجوه يترنم (١)

والشاعر حتى لا يفجأَنا بهول تالك اللحظة نراه يمهد لها منذ قال (ولما تقضوا من منى كل حاجة) فهيأَ منا النفوس لتوقع لحظة ينقطع فيها حبل القرب وتعود فيها العيون للتسجام (٢) ،والأَكباد للتحرق بلهيب النيران ، والقلوب تذيبها انفاس حارة ، تؤججها الصبابة والهيام .

---

(١) البيتان لكعب بن زهير . انظر ديوانه ص ٢٤٢ وأخبار الزجاجى تحقيق : والدكتور عبد الحسين المبارك ص ١١٣ . دار الرشيد للنشر .
(٢) يظهر حزنه غناء .
(٣) التسجام هو سيلان الدمع (لسان العرب (١٩٤٧/٣) .

فلم تر إلا باهــتا متحـــــيرًا وآخر يبدى شجوه يترنم

إننا هنا أمام صوره من صور القصيدة الحية الزاخرة بالمشاعر المتباينة المتكاتفة لإبراز صورة نفسية فسيحة وممتـــدة .

إننا الآن أمام إنسان أفقدته الصدمة وعيه، وأصابته بالحيرة والذهول فلم ينبس ببنت شفة ! إنه نموذج لإنسان محب عاشق لم يتحمل الصدمة العنيفة ، فوجم ! غير أن هنالك إنسانًا آخر عاشق محب كذلك ولكن الصدمة – وهى الصدمة السابقة عينها – تجعله يبدى شجوه مترنماً به » .

لقد جعلت منه الصدمة شاعراً يبث الجوى وينشد الآلام . وهذا نموذج آخر من نماذج المجبين .

والصورة فى جمعها بين النموذجين تعد صورة صادقة فوق أنها جميلة ورائعة . .

إن النفوس متباينة ، ليست قوالب واحدة متشابهة ، بل لكل نفس أبعادها ، ولكل نفس أعماقها ، ولكل نفس قدراتها وإمكاناتها وتجاربها .

كما أن لكل نفس ردود فعلها المتعددة أمام تـأثيرالفعل الواحد. والشاعر الملهم اللماح هو الذى يتنبه لهذه الحقيقة، فيضع يده على هذه الفروق التى تميز إنسانًا عن إنسان ، ونفساً عن نفس ، فلا تـأتى أشخاصه جامدة كأنها تماثيل ، قد تكون جميلة ولكنها فاقدة للحياة .

وإذن فنحن أمام شاعر ، إنسان ، خبير ، متأَمل ، متعمق فى مسارب النفس الإنسانية ، وعلى صلة بتجاربها الثرية فوق أنه شاعر ، بارع ، متفنن .

* * *

ولنواصل الرحلة !

رحلت وأشواقى إليكم مقيمة ونار الأَسى منى تشب وتضرم(١)

وتأَمل نار الأَسى التى تكتف بما يلاقيه الشاعر منها ، بل تتوهج وتشتعل فى عنف (تضرم) لتنال من الشاعر بأَقصى ما تستطيع

وبرغم إباء الشوق ، ورفضه للفراق ، فإن الشاعر لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فليودِعْ قلبه أمانة فى حمى الأَحباب حيث لا تثريب عليه من إعلان أسرار الجوى ، وليستحلف سائق العيس بربهم أن يقفوا على تلك الربوع ، مبلغين سلامه وواصفين حاله : حال محب قاده الشوق نحو الحبيب . بل حال مسكين قضى نحبه فداءٍ للمحبوب .

والشاعر يستعير من التراث : مخاطبة سائق العيس والوقوف على ربوع الأَحباب . ولكن هذه الأَشياء تصبح جديدة فى سياقها وتُطبع بطابع خاص .

فالعيس : عيس أخـــرى

والربوع : ربوع أُخـــرى

---

(١) تشتعل و تلتهب لسان العرب (١٥٨٣/٤)

وليس هذا تعسفاً منا فى التوجيه ، ولكن السياق — سياق الرحلة الروحية — هو الذى يوجهنا هذه الوجهة .

وحتى الهوى يسمو ويصفو فلا يصبح الهوى الذى يعمى القلوب ويبكمها(٢) كلا ، إنه هوى شريف سامٍ . . هو أصل الهدى ومحوره الذى عليه مداره .

قضى الله رب العرش فيما قضى به   بأن الهوى يعمى القلوب ويبكم
وحبكم أصل الهدى ، ومـــداره   عليه ، وفوز للمحب ومغنم

نعم ! فإن كان هوى الأرض عمىً وخسارة ، فإن هوى السماء : هدى ، وفوز ، ومغنم .

وأشواق الشاعر مضيئة ، مشرقة وخالدة ، لاتفنى بفناء العظام ولا ينال الموت منها شيئاً .

وتفنى عظام الصبِّ بعد ممـــاته   وأشواقه وقْفٌ عليه ، محرَّمُ

إنها ملازمة له ملازمة الوقف المختص بصاحبه .

فرفقاً أيها الفؤاد ، دعنى من اللوم والعتاب ! أما كفاك ما بى من عذاب ؟ ! وحتى متى أنت أيها القلب يحرقك الشوق فلاتنهض ، وتجرفك الآلام فلا تصحو ؟

---

(١) يقول البوصيرى : إن الهوى ما تولى يصم أو يصم .

إن المدى قد اقترب ، إن كؤوس السير قد دنت بينما يغط الناس في نوم عميق .

وهكذا نختتم هذه المرحلة من الرحلة . والشاعر يدق على باب قلبه يدعوه إلى النهوض للحاق بقافلة الخير، ويستحثه ويستنهضه قائلا : وحتام لا تصحو ؟ !

* * *

نحن الآن فى مرحلة جديدة فى مسيرتنا مع الشاعر ولكننا نطالعه فى بداية هذه المرحلة فنراه لا يزال واقفاً عند باب قلبه يطرقه ويدقه بطرقات متلاحقة ،وبدقات متتابعة (بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ويبدو لك الأَمر الذى أنت تكتمُ) بلى . إن لم تصح الآن بإرادتك فسوف تصحو قسراً فى يوم آت لا محالة . فيه ينكشف ما كان مستوراً ، فتبصر مالم تكن تبصر، ويبدو لك واضحاً ما كنت تبالغ فى كتمانه ، كل هذا سوف يبدو حاضراً ماثلا تراه الأَعين، وتطالعه القلوب .

وأنت تنظر هنا إلى حركة انكشاف الغطاء ، تعقبها لحظة الصحو ، ومثول الأَمر حاضراً لا تخطئه العين . كل هذا فى سرعة تناسب المقام : مقام الانتباه من نوم عميق على أحداث مروعة ومذهلة . ولكن هذه السرعة فى الإيقاع سوف تهدأ شيئاً ما عند عرض مشهد انكشاف السر (ويبدو لك الأَمر الذى أنت تكتم) ولذلك الهدوء فى الإيقاع وظيفة حيوية هنا مما يزيد من المساحة النفسية والزمنية فى عرض

وكشف الأعمال القبيحة على صاحبها الذى كان يتكتم عليها ويبالغ كتمانها . ولا شك أن زيادة الزمن هنا تعود عليه بالمرارة والحسرة .

ومن هنا نرى أن تنوع الإيقاع — سرعة وهدوءاً — يفيد فى إشاعة جو نفسى يعبر عن المقام أحسن ما يكون التعبير ، كما يساعد على نقل القارىء أو السامع إلى المشهد ذاته حتى كأنه أصبح جزءاً من أجزاء ذلك المشهد الحى المثير ، وليس مجرد مشاهد من بعيد .

والشاعر عندما يلجأ فى هذا المقام إلى الوعظ ، لا يلجأ إلى وعظ مباشر متكلف كعادة شعراء الزهد المصطنع ، أو عادة الوعاظ الرسميين . كلا وإنما هو يستخدم طريقة القرآن الفريدة الأثيرة : ألا وهى طريقة التصوير والظلال ، فيعرض علينا — على سبيل التأمل — صورة لإنسان يوقد النار ، والإنسان — عادة — يوقد النار للانتفاع بضوءها والدفء بحرارتها ، مع الحذر البالغ من شرها .

ولكن الرجل الذى معنا فى هذا المشهد الطريف . يوقد النار فينتفع بضوءها الناس جميعاً إلا هو ، لا يستفيد منها شيئاً بينما هى — النار — تتضرم بين جنبيه دون سائر الناس ؛ فله وحده الغُرْم ، وللناس جميعاً الغنم .

ثم ينمى الشاعر هذه الصورة بمشهد آخر هو مشهد الغَرْس ، فنتخيل صاحب الغَرْس وهو يرمى البذرة محدثاً نفسه بالأمانى حتى إذا جاء أوان الجنى لم يجد شيئاً وضاع غرسه وكده هباء .

أهذا جنى العلم الذى قد غرسته   وهذا الذى قد كنت ترجوه يطعم

لقد ضاع علمه ، ولم يعد يرجى لنفع ، ولم يعد يغنى من جوع !
والشاعر يعقب هذه المشهدين (مشهد النار التى لا تعود على صاحبها إلا بالدمار ، ومشهد الغرس يضيع على صاحبه سدى) يعقب ذلك كله بسخرية موجعة وتهكم مرير ليجابه صاحب المشهدين (وهو شخص واحد وليس شخصين) ، بحالة نفسية مؤلمة :

وهذا هو الحظ الذى قد رضيته   لنفسك فى الدارين جاه ودهم ؟ !
وهذا هو الربح الذى قد كسبته   لعمرك لا ربح ولا الأَصل يسْلَمُ !

فهذا هو الذى خرج به صاحب النار المحرقة والغرس الضائع ومن أجله باع كل شيء (جاه ودرهم) فما قيمة ذلك اليوم بجنب ما ضيع ؟ !

والشاعر لا يترك هذا المعذب لما يعانيه من الخيبة والمرارة فيما سبق من مشاهد بل يكيل له الملامة والتوبيخ كيلاً .

بخلت بشيء لا يضرك بذله   وجدت بشيء مثله لا يقوَّم

والمفارقة ظاهرة ، وإيماءاتها عديدة تجعل النفس تذهب كل مذهب لتفسيرها بعد أن تتأملها ،وتمعن فيها التأَمل .

إنه يلوم ذلك الغبى . . ويبين له فساد اختياره وسوء صنيعه لمَّا انقلبت الموازين عنده ، فيبخل بما ليس اوجوده أو بذله قيمة ، ثم يجود ويفرط فيما او خسره لخسر كل شيء ! والشاعر يعبر عن هذا المعنى العميق بوسيلة فنية تجمع بين المفارقة الطريفة والسخرية اللاذعة .

ثم بعد ذلك يفصل لنا ما أجمله فيقول :

بخلت بذا الحظ الخسيس دناءة وجدت بدار الخلد لو كنت تفهم
وبعت نعيماً لا انقضاء له ولا نظير . ببخس عن قليل سيعدم

لقد وضحت الصورة الآن واكتملت ، وبهذا تزداد المفارقة بروزاً : المفارقة بين بخلٍ بحظ حقير (الدنيا) ، وتفريط فى دار الخلد (الجنة) ، كما لا يفوت الشاعر أن يعيد التهكم بصورة أخرى فى أسلوب من التلميح أقسى من التصريح (لو كنت تفهم ؟) كما يبين له ما كان ينبغى عليه عمله – بما يتناسب مع كرامة الإنسان وعقله . فيقـــول :

فهلا عكست الأَمر إن كنت صادقًا ولكن أضعت الحزم لو كنت تعلم

وهو لا يكتفى بتالك العبارة التقريرية المباشرة ، بل يضيف إليها ركيزة فنية مُعجبه ، فيقدم لنا مشهداً من مشاهد القصيدة الحية التى تملأً على النفس أقطارها . . فيقـــول :

وتهدم ما تبنى بكفك جاهداً فأَنت مدى الأَيام تبنى وتهدِمُ

فيبرز لنا صورة إنسان نراه يبنى بكفه ، ويعانى صعوبة البناء فى جهاد ومشقة ، ولكننا لا نلبث أن نراه – هو نفسه – يهدم ما يبنى ، ثم يعود فيبنى ، ليهدم من جديد . وهكذا على مدى الأَيام .

ونستطيع أن نقول إن الصورة مقتبسة من صورة التى نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى

نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . . الآية »(١) .

فيكون هذا مثالاً جيدًا للاستفادة من صور القرآن وظلاله فى التعبير دون وقوع فى النقل المباشر والتقليد ، استفادة ننطلق بها من واقعنا الأدبى المحدود إلى آفاق رحبة .

ثم بعد ذلك نجد أنفسنا أمام مفارقة تصويرية جديدة يقوى بها الشاعرُ المشهدَ وينميه فى تناسق وتلاحم مع ما سبقها من مفارقات .

فنرى صاحبنا – صاحب المشاهد السابقة – فى صورةٍ عجيبة حقاً !

وعند مراد الله تفنى كميت وعند مراد النفس تسدى وتُلْحمُ

والظلال هنا تمدنا بما يجلى المشهد للعين ويقربه للفؤاد . لقد تحدد الفصل الأول من المشهد بتلك الكلمة (مراد الله) وبما توحى من جلال وعظمة تظلل المكان والمشهد جميعاً ، وتكون بمثابة خلفية الأحداث .

وتتلخص تلك الأحداث فى صورة فناء صاحبنا كالميت ، فهو ليس ميتاً وإنما متشبه بالأموات ، ولذلك يفقد منا إحساس الشفقة ، ولا يظفر إلا بإحساس الاحتقار من تماوته عند مراد الله . ولنا أن نتخيله فى حركة تماوته تلك ، يصطنع العجز والمسكنة وقلة الحيلة . وقد ينجح لبرهة فى خداعنا بتماوته ذلك ، ولكن ، ماذا حدث ؟

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٢ .

لقد اختلفت الصورة ، فإذا نحن فى فصل جديد لا يظلله جلال (مراد الله) وإنما يتغير المنظر فتصبح الخلفية عابثة لاهثة ، رسمها الشاعر بكلمة (مراد النفس) فإذا الشخص نفسه الذى كان متماوتاً عاجزًا إذا به يصارع ويسارع ، ويسدى ويلحم بما تشيع كلمتا (يسدى ، ويلحم) من الاستطالة والامتداد مما يزيد من مساحة الحركات . وكذلك بما تدلان عليه من الاستمرار والتزايد فى هذا الامتداد السريع العنيف .

وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا　　ظهيرًا على الرحمن للجبر تزعم(١)

وهذه لوحة أخرى تتآزر مع ما سبقها من لوحات يكتمل بها المشهد ورغم صياغة البيت واستخدام مصطلحات علمية كالاحتجاج بالقضاء وزعم الجبر إلا أن الموقف يبرز لنا صورة : هى صورة هذا القزم الحقير وهو يتطاول ويقف ظهيرًا على من ؟ . على الرحمن ! والمفارقة واضحة بين الضعف المطلق المتمثل فى هذا القزم المتطاول وبين القوة المطلقة والعزة العالية : عزة الله جل جلاله . « ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم » (٢) .

* * *

ثم ننتقل إلى سيل من المفارقات التصويرية المتتابعة ، المتلاحقة . تتعاقب فى سرعة ، وتشويق ، وإثارة فتجعل النفس فى حالة انتباه

---

(١) سيأتى شرح هذه المصطلحات : الاحتجاج بالقضاء والجبر فى شرحنا للقصيدة . إن شاء الله .

(٢) سورة يونس : الآية ٦٥ .

دائم وحضور حقيقى ، مستغرقة فيما يتتابع أمامها من صور وأخيلة . تتراءى لها فى بروز وشخوص .

فمفارقة تتمثل فى تبرئة النفس الأَمارة بالسوء مع اتهام الأَقدار الصادرة من منبع الحكمة الإلهية ! .

وأخرى تتمثل فى حل أُمور عقدها الشرع من جهة ، وإبرام أُمور أمر الله أن تقطع ، فتأَمل النفس حركتى الحل والإبرام بعد أن تتابع الحركات النفسية فى البيت لصورة القصد وإرادة الحل والإبرام .

ومفارقة ثالثة بين طاعة الغى ، وعصيان الرشد ، مع تطور بهذه المفارقة ، وامتداد بعرضها حتى تصل إلى ساحة أُخرى أجل وأسمى . إنها ساحة العرض الأَكبر ويوم يرجعون . وكذلك مفارقة بين البطء عن الطاعات والإسراع إلى الخنا والشرور ، ثم إبراز هذه السرعة فى صورة اندفاع السيل المتدفق فى مجراه لا يتشعب ، بل ينحدر فى اتجاه واحد ليكون أقوى وأسرع ! .

ونلاحظ هنا أن العلاقة الشعورية بين حركة الإسراع إلى الشرّ وحركة مجرى السيل إلى أسفل واضحة فى أن كليهما هبوط وانحدار !

ويختتم الشاعر هذه المفارقات جميعاً فى ختام موجز ومباشر كأَنما هو النطق بالحكم بعد مداولة طالت . ولا بأَس أن يكون الحكم مباشراً بعد أن مهد له بوسائل فنية متعددة .

فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

ثم يأخذنا الشاعر إلى عالم جديد من التصوير الفائق الموحى .

« تصوير الدنيا » .

وهذا موضوع وغرض من أغراض الزهد والوعظ . فهل يتناوله الشاعر بأسلوب شعراء الزهد المشهورين ؟ كلا . إنه يرتفع ويسمو — فنياً — مستخدماً الطريقة القرآنية الأثيرة (الصور والظلال) .

ولو تبصر الدنيا وراء ستورها رأيت خيالاً فى منام سَيُصْرَمُ(١)

وتصوير الدنيا بالخيال المنصرم (الذاهب) ليس جديداً، وإنما الجدة فى تركيب البيت بطريقة تشخص لنا هذا الخيال وتوحى بحركته مما يضفى على الصورة حياة جديدة .

كما أن فى الصورة عمقاً وبعداً فى محاولة إبصارك للدنيا من خلف ستورها الظاهرة الخادعة الخلابة . . فأنت حتماً تمثلاً بالبيت سوف تحاول وتجهد نفسك لاستكشاف ما وراء الستور . .

وماذا وراء هذه الستور ؟ .

إنه الخيال — مجرد خيال فى منام ، سوف يذهب وينقضى .

كحلم بطيف زار فى النوم ، وانقضى

المنام ، وراح الطيف . والصبُّ مغرم

---

(١) انصرم الليل وتصرم : ذهب . (المصباح المنير : (٥١٨)) .

تصوير دقيق غاية فى الدقة ، ومشهد حى غنى بالحالات الشعورية المتعددة . كل ذلك من خلال إيقاع فنى بارع ، وظلال ثرية للكلمات.

تتجلى دقة التصوير فى الاهتمام والعناية بالتفاصيل الخاصة للصورة ، فالحلم ليس حلماً عادياً بشىء حقيقى – رغم أن الحلم الحقيقى أيضاً لا يدوم – ولكنه حلم بمجرد طيف ومحْض خيال .

ثم يضفى الشاعر على هذا الطيف حياة فيجعلنا نتتبعه فى رحلة سريعة ، ومثيرة . وذلك بتنويعه فى الإيقاع المصاحب لها . لاحظ سرعة الإيقاع فى تتابع الأَفعال : (زار ، انقضى ، راح) فى سرعة وعنف ، فيوحى لنا ذلك بعنصر المفاجأَة فى زيارة الطيف ، ثم المفاجأَة عند انقضائه كذلك .

ويختلف الإيقاع فى حالة التعبير عن معاناة الصب المسكين الذى يتابع فى دهشة ، وذهول . زيارة الطيف المفاجئة ، ثم انقضائه المباغت ، تاركاً إياه فى تحرق وعذاب (والصب مغرم) .

فنرى الشاعر يستخدم هنا الجملة الإسمية بعد أن كان يستخدم – فى تتبع حركة الطيف – الجمل الفعلية فلماذا ؟

يقول البلاغيون : إن الفعل يفيد التجدد لدلالته على الزمان ويمثلون لذلك بقول الشاعر (طريف بن تميم) .

---

(١) الطيف : ما أطاف بالإنسان من الجن والإنس والخيال . المصباح ٥٨٥ .
الصب : من الصبابة : وهى رقة الشوق وحرارته ، مغرم : أغرم بالشىء : أولع به فهو مغرم.

أو كلما وردت عكاظ قبيلـــة بعثوا إلى عريفهم يتوسَّمُ(١)

فاستخدم الشاعر هنا الفعل المضارع « يتوسم » ليدل على أن هذا العريف إنما يصدر عنه تفرس الوجوه، وتأملها شيئاً فشيئاً، ولحظة فلحظة فهذا التوسم يصدر منه متجددًا (٢).

أما الفعل فإنه – بعكس ذلك – يدل على إفادة الدوام والثبوت كقول الشاعر:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطـــلق

فتعبيره بمنطلق للإشعار بأن انطلاق الدرهم على الصرة (وهى وعاء لجمع الدراهم) أمر ثابت دائم لا يتجدد – وأن الدرهم له استقرار ما فى صرته (٣).

وكذلك ابن القيم عبر هنا بقوله (والصب مغرم) ليشعرنا بثبوت وملازمة هذا الغرام (العذاب) للصب المسكين وذلك ليتيح له فرصة أكبر للمعاناة والألم.

كحلم بطيف زار فى النوم، وانقضى المنام، وراح الطيف، والصب مُغْرمُ

---

(١) عكاظ : هو سوق للعرب كانوا يجتمعون فيه فيتناشدون أشعارهم ويتفاخرون (مختصر السعد ((١٧٦/١)) ، عريفهم : عريف القوم القائم بأمرهم الذى شهد وعرف بذلك فهو رئيسهم ومتولى أمورهم ، يتوسم : يتفرس فى الوجوه.

(٢) انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح ومعه شرح ابن يعقوب (ص ١٧٦/١).

(٣) السابق : ص ١٧٦/١.

انظر ! لقد زاره الطيف فى المنام فجأة .

انظر ! لقد انقضى المنام . انظر ! لقد راح الطيف ، كل هذا وقد بقى المسكين واجماً ، قابعاً ، يعانى آلام الحسرة والعذاب .

* * *

ثم يتابع الشاعر تصويره للدنيا فى تفنن .

وظل أرته الشمس عند طلوعها   سيقلص فى وقت الزوال ويفصم(١)

هذه الصورة تقوية للصورة التى قبلها ، يعرض علينا رحلة الظل منذ طلوع الشمس إذ يراه الناس مطمئنين به ، مستظلين تحته يحسبونه ساكناً ، منخدعين بمظهره الساكن . فإذا به يرتفع عندما يأذن الله له بذلك ، ويدركون أنهم قد خدعوا ، وأن الظل كان يسير من تحتهم دون أن يفطنوا لحركته !

وظلال الكلمات تبين لنا طبيعة الظل فى مسيرته .

فالشاعر قد استخدم الفعل « أرته » وظلاله النفسية مناسبة لمقام طلوع الشمس التى تعم الكائنات بالضياء ، فمن شأنها أن تكون مصدراً للرؤية .

أما حين يعبر عن ارتحال هذا الظل فإنه يستخدم الفعلين (يقلص) أى يرتفع ، والفعل (يفصم) أى ينكسر ، وهما يوحيان معاً

---

(١) يقلص : قلص الشىء ارتفع . مختار الصحاح (٥٤٨) . ، يفصم : فصم الشىء : كسره من غير أن يبين قال تعالى : « لا انفصام لها » (البقرة ٢٥٦) .

بالقوة ، والصرامة في حركة الارتفاع ، والانقطاع ، وهذا يناسب جو الزوال ، فكأن الظل صار يعاني السكرات والنزعات قبل موت فظيع .

ومزنة صيف طاب منها مقيلها   فولت سريعاً والحرور تضرم (١)

الشطر الأول من البيت يمدنا بظلال نفسية طيبة ، ومريحة ، تصور العيش الرغيد ، والنوم اللذيذ .

يتألف المشهد من مزنة صيف وهى السحابة الندية الغنية ، ولكن نسبتها للصيف تمهد – مجرد تمهيد – إلى وشك الزوال والتولى . غير أن هذا الزوال رغم توقعه لا يزال بعيداً ، لا يخطر لبال النائم فى وقت القيلولة ، مستظلا بسحابته الرطيبة ، وقد غرق فى نعاس لذيذ .

ولكن المشهد ينقلب فجأة ، فإذا السحابة تولى سريعاً وإذا الحرور تتضرم ، وتلتهب كالنيران ، فيفيق النائم منزعجاً متحسراً على تولى سحابته التى كان منذ لحظة واحدة ناعماً تحت ظلها .

لقد ذهبت السحابة وبقى هو فى الحرور تلتهب .

ولاحظ استخدام صيغة الفعل المضارع فى « تضرم » وهى لإفادة التجدد كما سبق أى أنها تلتهب التهاباً بعد التهاب ، كما أن ظلال كلمة « التولى » تشى بعنصر المفاجأة التى تركت صاحبنا فى ذهوله ! .

---

(١) مزنة حيف : قطعة سحاب بيضاء أو ذات ماء . القاموس ٢٧١/٤) . مقيلها : القائلة نصف النهار . قال قيلا ومقيلا . نام فيه الحرور : الريح الحارة وهى بالليل . قال أبو عبيدة وقد تكون بالنهار . مختار الصحاح (١٢٩) تضرم : تلتهب وشدد للمبالغة . مختار الصحاح (٣٨٠) .

وإلى صورة تمثيلية جديدة :

ومطعم ضيف لذ منه مساغه وبعد قليل حاله تلك تعلم (١)

والفكرة فى البيت قديمة ، والكناية فيه معروفة . فالكل يعرف الطعام والحالة التى يصير إليها بعد هضمه .

ولكن الطريف هنا هو إشاعة جو تمثيلى لهذه الفكرة القديمة فإذا هى جديدة وطريفة .

إننا هنا أمام ضيف نسى نفسه فى منزل مضيفه ، لما رأى الطعام الشهى . وهو باعتباره ضيفاً كان عليه أن يتوقع الرحيل ولكنه كان أكثر نهما وانشغالاً بالطعام .

ومهما طال المقام به ، ومهما ساغ الطعام له ، فإن حالة الضيف إلى ذهاب ، وحال الطعام بعد هضمه إلى ما نعرف ونعلم !

كذا هذه الدنيا كأحلام نائـــم ومن بعدها دار البقـــاء ستقدم

الفكرة واضحة . ولكنه يعرض علينا صورة دار البقاء وهى تتقدم لتحل محل دار الأحلام والأوهام .

* * *

---

(١) مساغه : ساغ الشراب سوغاً أى سهل مدخله . القاموس (١٠٨/٣) والشطرة الثانية كناية عن إخراج فضلات هذا الطعام السائغ .

ونحن الآن ندرك لماذا كان الشاعر يقدم لنا كل هذه الصور التعبيرية ، إنه يقدمها لنا ليهيأنا لتقبل نصائحه الغاليه ، ونصائحه الغالية ليست مباشرة وإنما هو – كعادته – يعرضها فى جو تصويرى محبب ، يثير الخيال بصور متتابعة ، متطورة ، نامية حتى يصل بنا إلى الذروة .

فجزها ممرًّا لا مقرا وكن بها غريباً تعشْ فيها حميدا وتسْلم(١)
أو ابن سبيل قال فى ظل دوحة وراح ، وحلى ظلها يتقسم(٢)
أخا سفر لا يستقر قـــراره إلى أن يرى أوطانه ، ويسلم

تطالعنا أولا – صورة الغريب يعانى مرارة الغربة والاغتراب فى دار غربته ، بين أناس يعدونهُ غريباً عنهم .

ثم تطالعنا صورة أرقى وهى صورة ابن السبيل الذى هو أكثر غربة ، فالغريب قد يقيم بين أناس ويعيش بينهم غريباً عنهم ، ولكن ابن السبيل لا يقيم بل هو عابر أبداً .

ثم تطالعنا بعد ذلك صورة أكثر ارتفاعاً ورقياً ، وهى صورة أخى الأَسفار ، الملازم لها حتى كأَنهما أخوان لا يفترقان .

وهى صورة أكثر تطوراً مما سبقها ، لأَنه ليس كابن السبيل يرتبط بسبيل ، وإنما مسافر لا يستقر له قرار فى سبيل ، ولا دار .

---

(١) جاز المكان : سار فيه . وجاوزته : تعديته .
(٢) قال قيلا ومقيلا نام فى نصف النهار ، يتقسم : يتشعب أجزاء .

وهكذا يرتفع بنا الشاعر من طبقة إلى طبقة ، ومن منزلة إلى منزلة أعلى حتى نصل معه إلى الذروة .

فما هى الذروة ؟

« إلى أن يـــرى أوطانـــه ويسلم »

إنها الذروة المحببة إلى كل غريب وكل عابر سبيل وكل مسافر جـوال .

وإنها الغاية السامية التى من أجلها يعانى الغريب ويقاسى ابن السبيل أهوال السبيل ويكابد المسافر مشاق الأسفار . وبقى أن نقول إن الصور هنا مأخوذة من الحديث الشريف الذى رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما :

« كن فى الدنيا كأنك غريب . أو عابر سبيل » (١)

ولكن توفيق الشاعر يتجلى فى أنه وَظَّف الصور توظيفاً بديعاً فاستفاد من الحديث فى تنمية صوره حتى وصل بها إلى الذروة كما رأينا ، وقد أضاف صورة أخى الأسفار الذى لا يقر له قرار ، ونمى مشهد ابن السبيل الذى نام فى ظل دوحة وراح وخلى ظلها يتقسم فمزج صورة ابن السبيل فى الحديث السابق مع صورة الراكب فى الحديث الآتى :

« عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى

(١) صحيح البخارى (١١٠/٨) مطبعة الشعب .

الله عليه وسلم : (مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب ، استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (١) .

ولا شك أن المزج بين الصورتين دليل براعة وآية اقتدار .

نرى – إذن – أن الشاعر قد استفاد من تصوير الحديث الشريف مع عدم الوقوف عند حدود النقل المباشر .

إنه يأخذ من الحديث الخطوط الأولى ثم ينطلق بعد ذلك مواصلاً مسيرته الفنية فى براعة واقتدار .

* * *

ثم يتفنَّن الشاعر فى عرض صورة جديدة للدنيا، غاية فى الطرافة فيقـــول :

فياعجباً ! كم مصرع وعظت به بنيها ! ولكن عن مصارعهاعموا (٢)
سقتهم كؤوس الحب حتى إذا نشوْا سقتهم كؤوس السم ،والقوم نوَّم (٣)
وأعجب ما فى العبد رؤية هذه العظائم ، والمغمور فيها متيم (٤)
وما ذاك إلا أن خمرة حبها لتسلب عقل المرء منه وتصلم (٥)

---

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث صحيح . تحفة الأحوذى (٤٨/٧(.
(٢) مصرع : مقتل .
(٣) نشوا : النشو : السكر ونشوا : أى سكروا .
(٤) المغمور : المنهمك فى الباطل كأنه مستور فيه والانغمار : الانغماس فى الماء ، متيم :
(٥) تصلم : تستأصل قطعاً .

فى الأبيات السابقة يتعجب الشاعر من الدنيا وقد لعبت دور « الواعظة » التى تعظ أبناءها (أبناء الدنيا) ، وبماذا تعظهم ؟ إنها لا تتخلى عن طبيعتها حتى عندما تمثل دور الواعظة فإنها تعظهم بالمصارع ، ولكن أبناءها لا يغتنمون فرصة وعظها ، بل يضيعون الفرصة (ولكن عن مصارعها عموا) .

وها هى — الدنيا — لما لم ينفع الوعظ تقوم بدور آخر هو دور الساقى النديم (بعد أن كانت تقوم بدور الواعظ الحكيم) إنها تسقيهم كؤوس الحب ، ويستجيب الأبناء هذه المرة فينتشون ويتمايلون من السكر حتى إذا تعبوا (ولابد لهم أن يتعبوا) أعقبت ذلك بكؤوس أخرى هى كؤوس الموت !

وأبناؤها يتناولون منها ، ويعبون فى دعة واطمئنان إليها (والقوم نـوم) !

ويمكن أن تكون الصور أعمق لو تخيلنا الأم (الدنيا) وهى تطوف على أبنائها النائمين لا لتتعدهم بالرعاية أو لتطمئن عليهم ، لا لتسقيهم أكواب اللبن — كما تفعل الأم بصغارها عند النوم . وإنما لتسقيهم كؤوس السم ! .

ويزداد عجب الشاعر من هؤلاء الذين يرون كل هذه الأهوال فلا يتحركون ! ويصورهم بصورة (المغمور المتيم) وهى صورة غنية بالظلال ؛ فظلال كلمة المغمور تمدنا بصورة لهؤلاء وقد غرقوا فى الغفلة التى غمرت قلوبهم حتى بلغت رءوسهم .

وكذلك كلمة المتيم تمدنا بصورة لهؤلاء وقد ضلوا بعشقهم ، فهذا معشوقهم يرميهم بأَصناف العذاب وهم مسلوبو الإرادة ، فاقدو العقل بعد أن تعاطوا خمرة الحب والعشق .

وأعجب من ذا أن أحبابها الأُولى   تهين ، وللأَعدا تُراعى وتكرم(١)

فهى – الدنيا – امرأة عابثة ، تهين أحبابها ، وتتذلل لأَعداها .

والصورة مفعمة بجو المفارقة والتناقض بين إهانة الأَحباب المساكين ورعاية الأَعداء وإكرامهم .

وذلك برهان على أن قدرها   جناح بعوض ، أو أدق ، وألأَمُ .

وبهذا يعلل مواقفها السابقة ، إنها حقيرة القدر ، خسيسة الشأَن كأَنها جناح البعوض بل أدق وأخس . وهذه الصورة من الصور المقتبسة ببراعة من الحديث الشريف(٢) وصفها الشاعر لتعليل مواقف الدنيا التى تفنن فى عرضها وتصويرها .

ثم يقتبس من الحديث الشريف صورة تمثيلية رائعة ، وهو هنا يصرح بالاقتباس فيقول :

---

(١) الأولى : الذين   الأعدا : أصلها الأعداء .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء . رواه الترمذى وقال حديث حسن . انظر رياض الصالحين ص ٩٩ .

وحسبك ما قال الرسول ممثلاً   لها ولدار الخلد والحق يُفْهَمُ
كما يدلى الإنسان فى اليم إصبعاً   وينزعها منه فما ذاك يغنم(١)

يبرز لنا المشهد إنساناً واقفاً على شاطىء بحر مهول ، ثم يبرز لنا حركة هذا الإنسان — وقد راعه هذا اليم — يدلى فى اليم إصبعه . .

فلمـــاذا ؟

لماذا يدلى هذا الإنسان إصبعه فى اليم ؟ .

إن كلمة « يدلى » تشى بالإجابة .

إنه يدلى إصبعه فى اليم كما يدلى أحدنا دلوه فيه ، ليحصل على الماء الذى هو عماد الحياة .

وفى هذا تصوير لحالة نفسية عميقة ، لإنسان لا يملك أن يحصل على تلك الحياة إلا بإدلاء إصبعه الصغير ، لأنه يفتقد الوسائل الأُخرى .

ثم ها هو ذلك الإنسان ينزع إصبعه من اليم وهو يمنى نفسه بالغنيمة والكسب كما ينزع الصياد شبكته . ولكن .

(فما ذاك يغنم) ؟ !

أى غنيمة خرج بها ؟ .

يتركنا السياق عند هذا التساؤل العجيب . فلا يجيب !

---

(١) اليم : البحر .

نحن الآن مع الشاعر فى مرحلة جديدة من الرحلة معالمها : الأَشواق والأَحزان .

تظلل هذه المرحلة من بدايتها ظلال من اللهفة والرغبة حتى تنتهى بالظمأ ، والتضرع .

يبدأ الشاعر هذه المرحلة – من رحلة الأَشواق – بداية تنم عن مدى لهفته والتياعه ، وسنعرف أن اللهفة والالتياع هنا ممتزجان بالحذر من الدنيا (هذه الدنيا التى رأينا مارأينا من صورها السابقة السابقة ومواقفها السالفة)

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   على حذر منها وأمرى مُبْرم ؟(١)

إنه يتشوق للأَمان،ويتمنى البيات ليلة واجدة ، يطمئن فيها على نفسه من الدنيا وشرورها .

والأُسلوب هنا موظف لخدمة إشعارنا بمدى اللهفة ، فقوله «ألا» . – وهى أداة استفتاح وتنبيه – يفيد تنشيط المتلقى وتهيئته لتلقى تجربته ، مثيراً فى نفسه إحساساً مماثلاً لما يعيشه هو .

وقوله : « ليت شعرى » . – أُسلوب يفيد شدة الرغبة

---

(١) ليت شعرى : انظر الهامش التالى :

مبرم : محكم . أبرمت العقد إبراماً أحكمته . المصباح ص ٧٤ . والمبرم من الثياب المفتول الغزل طاقين . مختار الصحاح ص ٥٠ .

والتمنى وأصله « ليت شعرى حاضر » وحذف خبر ليت وجوباً كما يقول النحاة(١) .

وهو كذلك يستخدم الاستفهام المصدر بالأداة « هل » مما يدل على أن الأُمنية بعيدة ، صعبة المنال ، فهو يذهب فى توكيدها بشتى الطرق ، ولهذا نراه يستخدم – بعد كل هذه الوسائل لتوكيد رغبته – نون التوكيد الثقيلة ، ويبقى الاستفهام بعد ذلك صدى لا جواب عليه ، يوحى بالأَمل الخائف الراجف(٢) .

كما يفيد تنكير كلمة « ليلة » وإفرادها شدة المعاناة عند الشاعر وقوة إشفاقه ، وكأَنه الغريق يتمنى لظفره بالنجا ة أن يتعلق بقشة . . مجرد قشة ! .

ثم تنمو الأُمنية وتطور :

وهل أردنْ ماء الحياة وأرتوى   على ظمأً من حوضه وهو مفعم(٣)

فالرغبة الآن هى الارتواء بماء الحياة – بعد أن كانت مجرد

---

(١) يقول عباس حسن : وتختص «ليت» بأسلوب يلتزم فيه العرب حذف خبرها هو قولهم ليت شعرى .. ومع حذفهم الخبر فيه بإطراد يلتزمون أن يذكروا اسمها ، وأن يكون هذا الاسم كلمة «شعر» مضافة إلى ياء المتكلم ، وبعدها الخبر المحذوف وجوباً ، ثم تذكر بعده جملة مصدره باستفهام . انظر النحو الوافى عباس حسن (٦٣٥/١) دار المعارف .

(٢) مستفاد من كتاب «قراءة فى الأدب الأموى» للدكتور محمد عبد العزيز الموافى (٧١/٢) دار العلوم .

(٣) أردن : أحضر والنون مخففة من الثقيلة للتوكيد ،مفعم : ممليء أفعم الإناء : ملأه .

النجاه . والشاعر يرسم الأُمنية مضفياً عليها أبعاداً إنسانية ، فيصور لنا إنسانا ظامئا يتشوق فى لهفة أن يرد ويرتوى من حوض ماء الحيا ، المفعم الغزير ! .

والصورة حية تتحرك فيها مشاعر اللهفة ، كما تُظهر مشهد ورود الماء – وهو مشهد نفسى لا واقعى – ، وتبرز لنا حوض ماء الحياة فى صورة غامضة مثيرة للخيال ، تتركه حائراً فى إدراك كنه هذا الحوض وحقيقته بعد أن أدرك الرمز والصورة .

ثم يحس الشاعر بشىء من الاطمئنان بعد أن أفرغ شحنة من الهم فى تساؤله العجيب ، وفى ظمأه إلى ماء الحبيب فتتطور الأُمنية ، وتظهر فى صورة أرق :

لقد صار يتمنى بدوَّ وظهور أعلام الوطن (بلاد الأَشواق) وهى أعلامه وعلاماته التى بها يعرف .

وهذه الأُمنية تذكرنا بالغريب أخى الأَسفار فى صور سابقة ، وتذكرنا كذلك بما أفضنا فيه عند الحديث فى جو القصيدة . شعور بالغربة . . ، ثم اشتياق وحنين .. ، ثم رحلة إلى بلاد الأَشواق ! .

فالشاعر يتمنى هنا أن تلوح للغريب هذه الأَعلام لتكون علامة على بلوغ الديار وانقضاء الأَحزان والأَكدار ، بعدما سفت السوافى على هذه المعالم فطمستها .

إنه مشهد يبرز لنا الغريب الذى كان يعانى أهوال الغربة ، ويكابد مشاق السفر فى صحراء مطموسة المعالم ، فهو يتمنى أن تبدو له

تلك المعالم – أعلام الوطن – ليسعى إليها ويبلغ مشارفها بعد شدة معاناة .

ثم تأخذ الصور فى النمو والتتابع ، فها هو قد صار يتمنى بعد الوصول إلى الأوطان أن يفرش خده على الأعتاب فى خضوع واستعطاف عسى أن يرحمه الله تعالى .

وهو يُطلق الفعلين (يرقوا ، ويرحموا) ، ليكون الإطلاق أشمل لرغباته العظيمة ، وليشعرنا كذلك بمدى حاجته وعوزه إلى هذه الرقة المطلقة ولهذه الرحمة العامة .

وها هو يتدرج بأمانيه حتى يصل بها إلى الأبواب . . فيتمنى أن يرمى نفسه طريحاً بالباب بينما الطيور من فوقه تحوم ! .

وأى طيور ؟ إنها طيور منايا الحب .

وفى إضافة المنايا إلى الحب ما يدل على أن الشاعر لا يزال يعانى مشاعر قوية عنيفة ، وذلك فى مشهد تمثيلى رائع ، يتألف من طريح مسكين على الباب يعانى مشاعر متباينة من الفرحة بالوصول ، مع رغبة فى الدخول ، بينما طيور منايا الحب من فوقه تحوم وتجول .

ولاحظ أن الأمنيات هنا تأخذ بعداً إنسانياً عميقاً ، لأنها ليست أمنيات مجردة مطلقة ، بل هى أمنيات مرتبطة بالمكان والكيفية ، بالغ الشاعر فى إعطائها التفصيلات الخاصة والدقيقة ؛ فكانت أقرب إلى كل قلب ، وأدنى من كل إنسان .

وبهذا يستطيع القلب أن يلمسها عن قرب ، ويحقُّ للإنسان أن يحياها ويستغرق فيها .

وقد تفيدنا هنا ملاحظة استخدام الشاعر لنون التوكيد الثقيلة فى البيت الأَول (الأُمنية الأُولى) ، ثم استخدامه النون الخفيفة فيما تلاها من أُمنيات .

لقد كان – أولاً – بعيدًا عن جو التمنى ، غريقاً فى مشاعر الخوف ، والإشفاق ؛ ولهذا نراه يبالغ فى توكيد أُمنيتة ، لأَنه يراها – فى حالته تلك – بيعدة ، صعبة المنال : (يؤكدها باستخدام أداة الاستفتاح ، وأسلوب الاستفهام ، ونون التوكيد الثقيلة) .

فلما تجاوز هذه المرحلة ، وشعر بشى من الاطمئنان ، وهبت عليه نسمات السكينة ، ووصل إلى مراحل متقدمة ، نراه يتمثل أمنياته أكثر إمكانية وتحققاً مما لا يحتاج معه إلى المبالغة فى التوكيد ، فناسب هذا أن يستخدم النون الخفيفة (١) .

ونحن نلاحظ هنا أن الشاعر استخدم أُسلوباً بلاغياً يسميه البلاغيون أسلوب الالتفات(٢) .

---

(١) هذه الملاحظة مستفادة ، من تحليل الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الموافى لقصيدة جميل التى مطلعها : ألا ليت ريعان الشاب جديد ...

وذلك نقلا عن الدكتور شكرى الفيصل . انظر المرجع السابق .

(٢) يقول ابن القيم : هو نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى كالانتقال من الغيبة إلى الحضور ومن الحضور إلى الغيبة كقوله تعالى « مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين » الفاتحة (٤ ، ٥) انظر الفوائد المشوق لعلوم القرآن . صفحة ٩٨ المتنبى .

فقد كان يتحدث عن الأَحباب بضمير الغيبة حين كان يشعر بالبعد وصعوبة الوصول ، أما الآن وقد شعر بالدنو والقرب ، صار يخاطبهم بضمير الخطاب والحضور .

فما منكم بد ، ولا عنكم غنى ومالى من صبر ، فأَسلو عنكم

ولقد كان الشاعر جديرًا بالسعادة بعد تخطى الصعاب ، والوصول إلى الأَبواب ولكنه لا يزال يبدو أسيفاً ، حزيناً كأَنما يعانى مرارة أُخرى . فلماذا ؟ .

إن الشاعر هنا صادق كل الصدق فى نقل حالته بوصف يبرز لنا كل ملامحه الإنسانية ، وكأَنه يجسدها لنا حية جليَّة .

إنه لما بلغ الأَعتاب والأَبواب ، زاد شوقه وتوهج ، وصار فى حالة هائلة من الجيشان العاطفى ، وفى حالة نفسية يعانيها كل إنسان محب ، صادق ، أحس بازدياد قربه من محبوبه .

وهكذا يكون الشاعر فى شعوره بالأَسى والأَسف فى مقام الاقتراب . أقرب إلى الروح الإنسانية الصادقة وإلى تجاربها إحساساً وتعبيرًا .

فكيف عبر الشاعر عن هذا الحزن الصادق ؟ .

فيا أسفى ، تفنى الحياة وتنقضى وذا العتب باق مابقيتم وعشتم(١)
فما منكم بدٌّ ، ولا عنكم غنى ومالى من صبر ، فأَسْلُوَ عنكم(٢)

---

(١) ذا : أصلها هذا ، العتب : اللوم .
(٢) أسلو : أنسى .

إنه يأسى ، ويأسف ، ويستعدى إشفاقنا ، لأنه يضع لقصته عقده تستعصى على الحل . لأنه يبدأها ولا يستطيع أن ينهيها(١)

والعقدة التى بينها لنا الشاعر ، عقدة عميقة حقاً ، وهى كذلك عقده قائمة وباقية ، لا تفنى بفناء الحياة ، ولا تنقضى بانقضائها . ويزيد من عمق العقدة وحدتها أنه لا يستطيع لنفسه منها فكاكا ولا عنها سلوًّا .

فما منكم بد ولا عنكم غنى .

وهذه حالة تستدعى الإشفاق حقاً .

فنار الألم ، ومنايا الحب المحلقة فوق رأسه ، ومرارة العتاب أهون على الشاعر من أن يصبر أو يسلو ، وما ذلك إلا لأنه إنما يطمح إلى غاية عليا تهون فى سبيلها المشاق .

ومن شاء فليعتب سواكم فلا أذى إذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم(٢)
وعقبي اصطبارى فى هواكم حميدة ولكنها عنكم عقاب ، ومأثم(٣)

الظلال هنا تقوم بوظائفها فى كلمة «اصطبار» التى تصور شدة الصبر وصعوبته (تلك الصعوبة التى نلمسها فى نطق الصاد والطاء

---

(١) انظر قراءة فى الشعر الأموى (٦٩/٢) .
(٢) فليعتب : فليلم .
(٣) مأثم : الأمر الذى يأثم به الإنسان ، أو عقوبة الإثم .

من حروف الاستعلاء متجاورين ، تعقبهما سهولة حرف الألف تلك السهولة التى يتوهمها الصابر أحياناً ، ولكن صعوبة أخرى سوف تعقب ذلك فى نطق الراء وتكريرها فى طرف اللسان) .

وهكذا تتآزر الملامح الصوتية فى رسم صورة حية لحالة الشاعر النفسية وهو يعانى مرارة هذا الاصطبار(١) .

ولكن ! أى اصطبار هذا ؟ .

إنه اصطبار فى هوى المحبوب ، اصطبار لذيذ تتقبله النفوس الشريفة وتتحمله ، فى محبة ورضى .

نقول هذا ،لأن هناك اصطباراً آخر ، ليس فيه إلا الألم والشقاء ذاك هو الاصطبار عن المحبوب ، اصطبار منفر لأنه عقاب ومأثم

* * *

ثم يستمر الشاعر فى نغمة رضى هادئة ، ناعمة وإن كانت تمتزج بملامح خفية من المرارة والحزن ، ولكن الحزن يصير حزناً ناعماً شفيفاً بعد أن كان قاسياً وعنيفاً !

وما أنا بالشاكى لما ترتضونه   ولكننى أرضى به ، وأسلّم

---

(١) سوف يأتى الكلام عن تنبيه ابن القيم رحمه الله إلى العلاقة بين اللفظة ومدلولها .

إن ظلال كلمة الشاكى هنا – رغم أنها فى أُسلوب النفى – تشيع جواً خفيفا من الشكوى ، أو على الأَقل تدل على أن الموقف مناسب للشكوى ولكن الشاعر سوف يأَباها ، ويرفضها ، مستغرقاً فى الرضى والتسليم ! .

والشاعر بعد أن بلغ به الأَسى منتهاه – فيما سبق – يحاول الآن أن يعزى نفسه ويعللها ، فيفلح حيناً ، ويخفق أكثر الأَحيان .

ثم ينتهى من حيث بدأ . . باللهفة ! .

ولكن اللهفة هنا كذلك – ككل ما فى السياق – تبدو هادئة ، ناعمة بعد أن كانت قاسية ، عارمة .

وحسبى انتسابى من بعيد إليكم ألا إنه حَظٌّ عظيم ، مُفَخَّم (١)

إذا قيل : هذا عبدهم ومحبهم تهلل بشرًا وجهه ، يتبسم (٢)

وها هو قد أبدى الضراعة سائلا لكم بلسان الحال ، والقيل مُعْلِمَ (٣)

أحبته ، عطفاً علينا فإننـــا بناظمأٌ ، والمورد العذب أنتم (٤)

---

(١) مفخم : عظيم القدر .

(٢) تهلل بشرا : تهلل وجه الرجل من فرحه ، والبشر : الفرح ، وطلاقة الوجه .

(٣) الضراعة : الذل والخضوع والابتهال لله سبحانه .

القيل : القال والقيل اسمان من قال يقول وقال فى الإنصاف هما فى الأصل فعلان ماضيان جعلا اسمين واستعملا استعمال الأسماء . المصباح (٨٠١) ، معلم : المعلم : الأثر يستدل به على الطريق . (مختار الصحاح ٤٥٢(أراد أن لسان القيل دليل على ما يكنه لسان الحال .

(٤) هذه رواية (طريق الهجرتين (والأصل

أحبته عطف ا عليه فإنه لظمأ ، والمورد العذب أنتم

وعطفا عليه . أى اعطفوا عليه عطفاً . =

النغمة لا تزال هادئة ، فيها آثار باقية من الشكوى والمرارة الخفية ، وظلال الكلمات تعين على هذا الشعور .

فكلمتا « الضراعة » « والظمأ » تشيعان هذا الجو من الأَسى . أما جو الرضى والتسليم والفرح الهادىء المستبشر فتشيعه كلمات : (أرضى به ، وأسلم) ، و (إنه حظ عظيم مفخم) ، (التهلل والبشر والتبسم) .

وأما الرغبة والتشوق الهادىء الناعم ، فتشيعه كلمتا (أحبته عطفاً عليه) ، و (المورد العذب) .

وهكذا تتآزر الصور ، والظلال مع النغمة ، والإيقاع لنقلنا إلى مشهد حى ، تقربه إلينا وتطبعه فى الحس والوجدان ، فالوجه يتهلل فرحاً وتنبسط أساريره ، وتشرق ابتسامته لسماعه انتسابه إلى الحبيب بكلمة التشريف (عبد الله) ، ذلك لأَن الإضافة هنا إضافة تشريف وتكريم كما تقول بيت الله وناقة الله . وكذلك حركة إبداء الضراعة والمناجاة بالعين والفؤاد ، الذى لابد أن تنطبع ملامحها على الوجه والجوارح ، فتمدنا بمشهد تعبيرى صامت ، ومعبر .

وأخيراً صورة الظامىء المتلهف على عطف الحبيب ، وورود المورد العـــذب .

وما نكاد نقف مع الشاعر عند هذه المرحلة حتى ندرك مدى

= والمورد العذب : موضع ورود الماء السائغ وورد الماء أى ساغه ووافاه من غير دخول . المصباح ١٠١٥ .

ما عانى وصارع وجاهد حتى وصل إلى تلك الحالة من الهدوء . (الهدوء الذى يعقب العاصفة) كأن الشاعر قد استنفد كل جهده فيما سبق ، فلم يعد يملك إلا حشاشة تذوب ، أو كأنه الغريق حل عليه التعب والوهن بعد صراع عنيف ، مع الأمواج ، وضاع صوته بعد طول استغاثة وصراخ .

لقد حل عليه الوهن تماماً فهو يمد يده فى صمت واستجداء يدعو ويرجو بنظرات مسكينة بعد أن احتبس صوته وبلغ به الضعف مبلغه .

* * *

ومن هنا . . سوف يأخذنا الشاعر معه إلى رحلة جديدة ولكنها أصعب وأشد خطورة ، ولكنها كذلك أبعد وأرقى بأكثر مما نتصور .

إنها رحلة إلى العالم الآخر . .

ولهذا فإنه تمهيداً لهذه الرحلة الرهيبة ، يمدنا ببعض النصائح . كتلك النصائح التى تقدم لركاب الطائرة حين تتأهب للصعود والتحليق .

فالشاعر هنا ينصحنا بالإفاقة والانتباه ، وهى نصيحة تقابل تنبيه الركاب « الطائرة تستعد للتحليق » ثم يوصى بالاستمساك بالعروة الوثقى وهى تقابل « اربطوا الأحزمة » .

وبالطبع فإن العلاقة هنا لم تكن فى ذهن الشاعر أثناء كتابة تجربته الشعرية ولكن رهافة الحس واستغراق الشاعر فى جو الرحلة ،

كل هذا ارتقى به إلى منزلة من الإدراك السامى ، لا تعترف بحدود الزمان والمكان .

لقد رأى أن الرحلة خطيرة رهيبة ، وأنها تحتاج إلى تقديم النصائح والتوجيهات بالاستعداد والتأهب ، وبالاستمساك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والتحذير من الوقوع فى مراتع الهلاك .

وهذه النصائح والتوجيهات ، لم يقدمها فى أُسلوب مباشر ، وإنما عرضها بطريقته الأَثيرة ، المحببة ، بالصور والظلال ، فأَمدنا بصورة الساعى المغمور فى الجهل والهوى ، وقد وقع صريع الأَمانى الكاذبة ! .

كما أمدنا بصورة دنو الوقت ، الذى تعقبه صور أُخرى للجنة بكل ما توحى من النعيم والسعادة ، وصورة النار تتضرم وتشتعل، كما أمدنا كذلك بصورة المستمسك بالعروة الوثقى تمسك البخيل ، الضنين بماله .

ثم صورة العض عليها بالنواجذ،وهى صورة توحى بشدة الحرص والتعلق ، ثم صورة مراتع الحوادث الوخيمة،التى توحى بجو الرهبة والخوف .

وهكذا يستدرجنا الشاعر بهذه الصور المتتابعة ، المتلاحقة حتى نرى أنفسنا فجأَة فى مشهد يوم العرض الأَكبر . ويالله من مشهد ! والشاعر يتلطف بنا فى الدخول إلى هذا المشهد الهائل ، ويطالبنا بالتهيؤ له . بماذا ؟ .

بإعداد الجواب ! هكذا فى إطلاق يثير الغموض والجلال ، ثم لا يكاد يفرغ من هذا التنبيه حتى يفاجئنا نداء جليل رهيب ، تنخلع لهوله القلوب .

وهىء جواباً عندما تسمع الندا من الله يوم العرض : ماذا أجبتم(١)
به رسلى لما أتوكم فمن يكن أجاب سواهم. سوف يخزى ، ويندم(٢)

إنه نداء من الله سبحانه ، نداء جليل يرتفع ويسمو على حدود التصور والإدراك (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)(٣)

وسوف يكون لآثار النداء جلالة خاصة فى الآذان والأفئدة . إنه نداء رهيب ، لأن من يخطىء إجابته سوف يصاب بالندامة والهوان ، بل إن مَن علم من نفسه افتقاد الجواب السليم ، فلسوف يبهت ويغرق فى ذهول ، فلا يستطيع قولاً ولا اعتذارا من هول الموقف وخطورة المقام .

والآن . فلنحترس ! .

إننا مقدمون على مرحلة من أخطر مراحل الرحلة على الإطلاق ولابد — والحال هذه — أن نعتصم بجنة واقية .

وخذ من تقى الرحمن أعظم جنة ليوم به تبدو عياناً جهنمُ(٤)

---

(١) الندا : النداء .
(٢) يخزى : يذل ويهون .
(٣) سورة الشورى من الآية (١١) .
(٤) جنة : السترة وكل ما وقى من السلاح ، عيانا : عاينه عيانا : مرآة بعينه .

ويُنْصب ذاك الجسر من فوق متنهـا

فهـاوٍ ، ومخدوشٍ ، وناج مُسَلَّمُ(١)

والجُنَّة الواقية هى تقوى الله عز وجل .

ولاحظ المناسبة اللطيفة بين ظلال الكلمتين (الجنة ، والتقوى) فهذه جنة من سهام الحرب ، وتلك وقاية من عذاب الله . فكلاهما وقاية وتحصُّن من الشرور والأَهوال .

كما أن الكلمتين توحيان بخطورة الموقف، الذى يستلزم الجُنة والوقاية .

والمشهد لا يقدم لنا صورة جهنم – رغم هولها – منفردة، بل إنه يجعلها أرضية لأَحداث رهيبة ، رهيبة .

فهذا جسر ينصب الآن من فوقها ، والناس عليه يعبرون . فإذا عرفنا أن هذا الجسر أدق من السيف، أدركنا أى مشهد مثير ، يعرض علينا .

أُناس متباينون فى مرورهم بهذا الجسر (الصراط) ؛ فالبعض يهوى من فوقه منذ البداية بعد ترنح فى محاولة للتوازن قبل السقوط المروِّع .

---

(١) متنها : ظهرها ، هاو : ساقط ، مخدوش : مجروح . وسوف نتحدث عن هذا بالتفصيل إن شاء الله مع عرض الأحاديث الواردة فيه عند شرح القصيدة .

والبعض يفلح فى محاولة التوازن والمرور، ولكن بعد أن تأخذ الكلاليبُ التى تحوط الجسر حقها منه ، فتكتفى بخدشه .

وفى خضم هذه المشهد المهول ، تبرز لنا صورة مشرقة ، ولكنها — للأسف — سرعان ما تمر ، تلك هى صورة نجاة البعض وسلامتهم .

ثم يختفى المشهد كله سريعاً ؛ فإذا نحن فى موقف آخر ، وفى هول من نوع مختلف ، إنه ليس ناشئاً عن نيران وجسور وكلاليب . وإنما الهول ناشىء من خطورة أُخرى .

إنه موقف تحديد المصير !

ويبدأُ الموقف بداية غير عادية ، بداية تفوق التصور وتسمو على التخيل ، ولكنها تثير فى النفوس ما تثير .

ويأْتى إله العالمين لوعـــــده فيفصل ما بين العباد ويحكم
ويأْخذ للمظلوم ربُّك حقَّه فيابؤس عبد للخلائق يظلم !

وينشر ديوان الحساب وتوضع الموازين بالقسط الذى ليس يَظْلم (١)

فلا مجرمٌ يخشى ظلامة ذرة ولا محسن من أجره ذاك يُهْضمُ(٢)

إنه معرض المشاعر الإنسانية ، المتباينة فى هذا الموقف العصيب . موقف العرض والحساب .

---

(١) القسط : العدل .

(٢) ظلامة : المظلمة اسما لما تطلبه عند الظالم ، ذرة : الذر صغار النمل والواحدة ذرة . يهضم : ينقص حقه .

يسترجع كل إنسان اعماله فى وجل وإشفاق (فيابؤس عبد للخلائق يظلم) .

ويبلغ الإشفاق مداه، والمشاعر أوجها عندحركة نشر ديوان الحساب ووضع الموازين .

ثم تتباين المشاعر ؛ فالمجرم على يقين من أنه لن يظلم مقدار ذرة فيفقد بذلك نعمة كبرى ، يواسى بها المكروب فى الدنيا نفسه ويصبرها بأنه مظلوم ، برىء .

إن مكروب الآخرة ، لن يستطيع أن يخدع نفسه بهذا الشعور من البراءة ، والإحساس بالظلم ؛ (فلا مجرم يخشى ظلامه ذرة) والصورة المقابلة لذلك هى صورة المؤمن المطمئن لموعود ربه

(ولا محسن من أجره ذاك يُهْضَمُ) .

ثم يمدنا الموقف بمشهد مثير وطريف .

إنه مشهد « شهادة الأعضاء » بما يوحى ذلك من إثارة وطرافة . فنرى صاحب هذه الأعضاء الناطقة ، ولابد أنه رجل متمرس بالكذب ، والحيلة ، والدهاء ، وأنه يستعد الآن لإلقاء خطبة براءته المزعومة ، ولكن المهيمن - سبحانه وتعالى (وبما توحى الكلمة من سيطرة واقتدار) يختم على فيه ، فإذا الأعضاء - التى كان إنما يدافع عنها ويجادل - إذا بهذه الأعضاء تشهد عليه بجنايته ، وتفضحه على رؤوس الخلائق !

* * *

وبعد عرض هذه الصور والمواقف التى كانت تعرض علينا ، ولا نقوم فيها إلا بدور المشاهدين ، إذا بالشاعر ينقلنا — فجأة — إلى خضم الموقف الرهيب فنحن فيه شخوص حاضرين .

وقد توسل الشاعر لذلك باستخدام أسلوب الالتفات وهو كما قلنا الانتقال بالضمير من حال إلى حال ، وهو هنا ينتقل بالضمير من حالة الغائب إلى حالة المخاطب الحاضر ، والشاعر لا يختار لنا إلا موقفاً فى غاية الخطورة يزج بنا فيه ، ويقحمنا لنشارك بعد أن حسبنا أننا سنظل مجرد مشاهدين !

فياليت شعرى ! كيف حالك عندما   تطاير كُتْبِ العالمين ، وتُقْسَمُ

وها أنت الآن — بنفسك — تشاهد وتتابع حركة تطاير الكتب ، وها أنت تترقب — فى إشفاق وانبهار — انتهاء حركة هذا التطاير وتتساءل : أباليمين تُأخذه ، فتكون هذه دلالة الفوز ، وشهادة النجاة أم بالشمال ، فتكون علامة الخسران ؟

وإنه يتلطف فيعرض الصورة الأُولى مشرقة ، مطمئنة . . فتهدأ قليلاً بعد أن يكون قلبك قد تطاير مع حركة تطاير الكتب ، وهى فرصة جيدة لالتقاط الأَنفاس !

وتقرأ فيه كل شيء عملتـــــه   فيشرق منك الوجه أو هو مظلم

صحيح أن الصورة لا تزال متداخلة ؛ إشراق وظلمة ، ولكن الإشراق هو الغالب .

تقول : كتابى فاقرءوه ؛ فإنـــه   يبشر بالفوز العظيم ، ويُعْلِمُ

إن حركة الفرح بارزة ، شاخصة ، ومما يزيد من بروزها وحيويتها أنها تثير في النفس حركة أخرى باستدعاء التجارب المماثلة لهذا الموقف وذلك عندما يطير أحدنا من الفرح عند علمه بنجاحه فى أمر من أمور الدنيا ، يريد أن يعلم العالم كله به ، ويشهده عليه ، ويريه شهادة نجاحه ودرجاته العاليه ، ليشاركه الجميع فرحته العظيمة .

فإن تكن الأُخرى فإنك قائل : ألا ليتنى لم أوته » ، فهومغرم(١)

هذه هى الصورة المقابلة : صورة الخيبة ، والمرارة . حتى ليودَّ صاحبها لو لم يكن أوتى هذا الكتاب من الخزى .

ويغتنم الشاعر الفرصة ـ كعادته ـ فيقدم بعض النصائح ، يعرضها بطريقته الأثيرة فى صورة موحية ، سريعة ، تناسب سرعة تتابع نصائحه الحاسمة .

وجِدَّ ، وسارِعْ ، واغتنم زمن الصِّبا فى زمن الإمكان ..تسعى،وتغنم

الإيقاع سريع ، وظلال الكلمات يوحى بالسرعة والحسم . (جد ، وسارع ، واغتنم) وكذلك الصورة سريعة تناسب السياق :

وسر مسرعاً ، فالسيل خلفك مسرعا وهيهات إما منه مفر ومَهْزم (٢)

وهى خطيرة تناسب خطورة المقام .

---

(١) مغرم : خاسر :

(٢) أى والسيل خلفك يسير مسرعاً .

مفر ومهزم : مهرب وملجأ ، والهزمة هي النقرة في الصخر . المصباح ٩٨٧ :

فحركة السيل ، السريعة ، المتدفقة تلاحقك فى سرعة ، تريد أن تودى بك ؛ فعليك أن تسرع ، وتسرع .

فهن المنايا أى واد نـــــزلته عليها القدوم أو عليك ستقدم

والصورة للمنايا وهى تبحث عنك وتَجِدُّ فى إثرك ، تطاردك من واد إلى واد حتى تتحين فرصة الإقدام ، والبطش بك فى أى واد نزلت ، مهما يكن هذا الوادى .

* * *

وأخيراً . . . وصلنا إلى بلاد الأشواق .

بعد رحلة طالت ، ومشاق كابدناها ، وأهوال عانيناها وقاسيناها

وما ذاك إلا غَيْرةً أن ينالها سوى كفئها . والرب بالخلق أعلم

لقد كان لابد لنا أن نعانى وأن نكابد حتى نصل إلى هذه الغاية المرجوة ، وهذا الأمل المرغوب الذى كان يلوِّح لنا به الشاعر أحياناً فى ومضات تبرق ثم تختفى ثم تبرق من جديد .

وإن حجبتْ عنا بكل كريهة وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلم(١)

فهذه هى طبيعة الآمال البعيدة الغالية ، لا يتوصل إليها إلا بتحمل المكارة والتذاذ الأذى .

« ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر »

وتلك هى طبيعة الجنة ـ سلعة الله الغالية ـ حفت بالمكاره كما حجبت النار بالشهوات .

وصورة حجب الجنة بالمكارة ، تثير فى النفس مشاعر غزيرة . وتثير فيها محاولة تخطى هذه الحجب ؛ لاستكشاف ما وراءها من مشاهد النعيم ، وكذلك تطلق النفس فى طريقها المحفوف بالأذى فى محاولة الاجتياز والوصول حتى إذا وصلنا ـ مع الشاعر ـ طالعتنا الجنة بمسراتها ، وأصناف لذاتها ، فتنعم ـ معه ـ ببرد العيش بين خيامها ،

---

(١) انظر الشرح والأحاديث الواردة أثناء شرح القصيدة إن شاء الله .

وتتجول ، وتتنسم عبير روضاتها فى هناء عظيم ، وتَهِيم بوديانها فى سرور مقيم .

فلله ما فى حشوها من مســـرة وأصناف لذات ، بها نتنعَّمُ (١)
ولله بـرد العيش بين خيامها وروضاتها ، والثغر فى الروض يبسِمُ (٢)

يستخدم الشاعر طاقته الفنية - وهى طاقة مذهلة - ويحشدها كلها ليقرب إلى قلوبنا هذه الصورة المشرقة للجنة .

فالمسرات ، وأصناف اللذات ليست مبثوثة فى جو الجنة وطرقها فحسب ، وإنما هى فى حشوها ؛ فتوحى الكلمة بتداخل وامتزاج المسرات وأصناف اللذات فى قلب الجنة وحشوها :

ونسمو - مع الشاعر - فى الجنة درجات بعد درجات ، فإذا نحن فى مشهد يجل عن الوصف ، ويعلو على الإدراك .

فلله واديها ، الذى هـو موعد المـــزيد اوفد الحب . او كنت منهم (٣)
بذيالك الوادى يهيم صبابـــة محبٌّ يرى أن الصبابة مغنم (٤)
ولله أفراح المحبين عندمـــا يخاطبهم من فوقهم ويسلم

(١) حشوها : الحشو : ما حشى به الشىء .
(٢) الثغر : هو المبسم أى الفم :
(٣) موعد المزيد : انظر الشرح فيما بعد .
(٤) صبابة : هى حرقة الشوق .

ولله أبصار ترى الله جهـــــرة فلا الضيم يغشاها ، ولا هى تسأم (١)
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضْرةً ! أمِنْ بعدها يسلو المحب ،المُتيَّمُ(٢)

*إنه موعد الأفراح ، والمزيد .

الموعد الذى عرفنا الآن أنه سر هيام الشاعر وشكواه ومعاناته فيما سلف .

بدأ الشاعر بتحديد المكان والزمان ؛ فالمكان هو الوادى الذى يهيم به المحب صبابة ، ويتحرق إليه شوقاً ، وهو يظلل المكان بجو من الفرحة والسرور .

أما الزمان ، فإنه يوم المزيد ،وهو اليوم الذى يقابل يوم الجمعة كما سيأتى فى سياق الأبيات من الشرح إن شاء الله .

والآن وبعد أن تعرفنا الزمانَ والمكانَ ،بقى أن نتابع الأحداث . والأحداث تبدأ بقدوم وفد الحب ، تعلو وجوههم بشائر الفرح وهم يستمعون لخطاب الله سبحانه من فوقهم ، يسلم عليهم .

والظلال تبرز لنا الجو النفسى الذى يحيط هذا الموقف الجليل بكلمة (أفراح المحبين) .

والظلال تبين لنا جلال هذا الموقف بكلمة (من فوقهم) ولم يبق

---

(١) سوف يأتى تفصيل ذلك والآيات الواردة أثناء سياق الأبيات فى الشرح إن شاء الله ، الضيم : المشقة والنصب ، يغشاها : يأتيها ويصيبها .
(٢) نضرة : حسن ، ونضره الله أى نعمة الله .
يسلو : ينسى ويرضى بالهجر ، المتيم : المنفرد بحبه .

للخيال إلا أن يحلق فى محاولة للوقوف على شىء من عظمة أفراح المحبين فى موقف جليل، جليل .

ولله أبصار ترى الله جهــــرة فلا الضَّيْم يغشاها ، ولاهى تسأَم

وهذه لذة أُخرى ونعيم ، يفوقان كل ما سبقهما من اللذات، وما يتلوهما من المسرات .

كيف لا وهى نهاية أشواق المحبين . . وغاية رحلة المهاجرين ؟ !

وسوف نتحدث أثناء الشرح - إن شاء الله - عن الرؤية وإثباتها وما ورد فيها من أحاديث،ولكن بحسبنا هنا أن نعيش لحظات قصار فى ظلالها .

إنها رؤية عظيمة جليلة - تجل عن الوصف، وتسمو على الإدراك

وإنها رؤية خالصة ، لا يشوبها الضيم ولا يبلغها السأَم .

ومن روعة هذه الرؤية وجمالها أنها تهدى الوجه نضرة ، وأنها تسق الفؤاد ريًّا لا ظمأً بعــــده .

فيانظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحبُّ المتيَّمُ

وعندما نصل - مع الشاعر - إلى هذه الذروة السامقة ، وتلك القمة العالية من النعيم الذى لا نعيم وراءه ، ندرك أسرار تشوقه السابق ، ونتذكر - بإعظام - مدى ما لاقى من المعاناة .

فإذا وصلنا - معه - نسينا كل هذه الأَلام ، بفيض النعيم الذى بلغة الآن ، فكأَنه ما ذاق مشقة قط ! .

وإلى مشهد جديد ، نتوقع من خلاله أن الشاعر سيطوف بنا فى الجنة ، يتنقل بين مظاهر نعيمها المتعددة ، المتجددة :

ولله كم من خيرة لو تبسمت   أضاء لها نور من الفجر أعظم

يطالعنا بهذه الصورة العذبة . . صورة النعيم مجسداً فى حور الجنة ، يجيلها لنا متبسمة ، يضىء لابتسامها نور الفجر الأعظم ، ثم يجلّيها لنا مقبلة ، تقبل لإقبالها اللذة والسعادة . فإذا تكلمت ، أخذت الأسماع بنصيبها من اللذة والحبور ، أما إذا انثنت ، فإنها الغصْن الرطيب خجلاً وحياءً . فهى تنثنى ولكن فى حياء وخَفَر . وتلك إضافة جديدة وقيمة إلى تشبيه المرأة بالغصن حين تنثنى فى الشعر العربى .

وقد وظفه الشاعر هنا ؛ لإكمال الصورة الحية للحور ، فى تتبع حركاتها وسكاتها ، وتبسمها وحيائها .

والشاعر سعيد بالموقف – وهو يدرك أنه أسعدنا – فلا يمر به سريعاً ، بل يعيش فيه لحظات متملياً ، متأملاً ، متنعماً .

فإن كنت ذا قلب عليل بحبها   فلم يبق إلا وصلها لك مرهم

إن جمالها – فوق أنه متعة للعين وبهجة للأسماع – علاج القلوب وشفاء ، وهى إشارة يسيرة خاطفة لكل ما كابده الشاعر من قبل فى رحلة الصعود والارتقاء ، وإنه ليصف لنا هذا العلاج الأكيد فى صورة محببة ، مثيرة ، مشوقة .

ولا سيما فى لثمها عند ضـــمها   وقد صار منها تحت جيدك ،ينعصمُ

الصورة كاملة ، وغنية بالتفاصيل الدقيقة ، تتآزر فيها الجزئيات لرسم مشهد حى . . متكامل .

وقد بلغت الصورة (صورة حسن الحور العين وجمالها) الذروة من القوة والتأثير حتى إنها لتعالج العليل من بُعْدٍ بعيد .

يراها إذا أبدت له حسن وجههـــا   يلذ به قبل الوصال وينعم

هذا نعيم ما قبل الوصال . فكيف بالوصال نفسه ؟ !

وإن حسنها ليس من ذلك الحسن البسيط ، المفرد . . إنه حسن متعدد ، متجدد ، لا يخبو ، ولا ينفد .

تفكَّه منها النفس عند اجتلائها   فواكه شتى طلعها ليس يعدم (١)

ولنعش فى ظلال هذه الصورة لحظات . . ولنتأمل فى الكلمات التى وسمت لنا هذه الصورة (تفكه ، اجتلاؤها ، فواكه شتى ، طلعها)

فكه الرجل فهو فكه : إذا كان طيب النفس

وبهذه الصورة تطيب العين وتنعم باجتلاء الجمال وتعيش فى نعيم قريب من نعيم طيبة النفس . . ويا له من نعيم !

وقد ربط الموقف بين تفكه العين وبين مظاهر الحسن فى التعبير بكلمة « فواكه شتى »

---

(١) لثمها : تقبيلها ، جيدك : عنقك ، معصم : موضع السوار من الساعد .

(١) تفكه : تتعجب ، وتتنعم .

والاجتلاء يوحى بالظهور للعين والوضوح والانكشاف ، كما يوحى بانجلاء الهم أى ذهابه .

وبهذا تظهر لنا صورة الحور مجلوّة ، فى سعادة ، وهناء وكذلك كلمة « طلعها » التى تشيع جو البساتين والرياض . ذلك الجو الهنىء

وهكذا تتعاون الظلال جميعاً فى رسم لوحة يشيع فيها جو من طيبة النفس ، وسرورها ، وهنائها .

* * *

ثم يمد اللوحة بتفاصيل جديدة ، فإذا نحن فى البستان حقيقة وأى بســتان !

عناقد من كرمٍ ، وتفاح جنة ، ورمان أغصان بها القلب مُغْرمُ
وللورد ما قد ألبسته خدودهـــا والخمر ما قد ضمه الريق،والفمُ
تقسَّم منها الحسن فى جمع واحد فياعجباً من واحد يتقسمُ !

يطالعنا البستان بعناقد الكرم وتفاح الجنة ورمان الأَغصان . وهذه أسماء فواكه الجنة ، تلك الفواكه التى لا يجمع بينها وبين فواكه الدنيا إلا الأَسماء .

وما هذه الأَسماء إلا مجرد رموز لأَشياء فى الجنة لا يمكن لنا أن ندركها بالحس ولا بالخيال . . فبحسبنا أن نعيش فى ظلالها - ظلال الجنة - بمساعدة هذه الأَسماء والرموز !

ويعود الشاعر إلى وصف حسن الحور ،وتقريبه لنا بتشبيهات مألوفة :

وللورد ما قد ألبسته خدودها   وللخمر ما قد ضمه الريق،والفم

ثم يتعجب من تجمع حسنها فى تناسق ونظام مع تفرقه وتعدده وتشعبه ، فتتساءل العين : هل هو حسن واحد أم متعدد ؟

تقسم منها الحسن فى جمع واحد   فياعجباً من واحد ينقسم

إنه حسن واحد، ولكن العجب فى تشعبه كالنبع الواحد يتشعب فى الوديان ليعم خيره على الجميع .

وإن لحسنها سطوة تذكر ناظرها باستحالة السلو عنها، وتدهش اللسان فلا يملك إلا التسبيح

تذكر بالرحمن من هو ناظر   بجملتها أن السلو محرم

لما فرق شتى من الحسن أجمعت   فينطق بالتسبيح ، لا يتلعثم!

ثم يمدنا الشاعر بصورة جديدة لسحر جمالها وسلطانه على القلوب :

إذا قابلتِ جيشَ الهموم بوجهها   تولى على أعقابه الجيش ، يهزم !

إن جيش الهموم — على قوته — لا يستطيع الصمود أمام سطوة ذلك الجمال ، جمال وجهها الآسر ؛ فنراه يعزم على الفرار فى فوضى وذعر وانهزام ، وهذا الانهزام هو شر أنواع الهزيمة ؛ لأنه انهزام من داخل ، أمام سلطان أشعر هذا الجيش — منذ البداية — بألا قبل له بمواجهته أو الوقوف أمامه !

ثم يلتفت إليك الشاعر — كعادته — بضمير الخطاب ليشركك

معه فى روعة هذه المشاهد ، كما ينبهك إلى دورك فيها ، وأن مهمتك ليست مجرد المشاهدة .

فياخاطب الحسناء إن كنت راغباً   فهذا زمان المهر ، فهو المقدَّمُ

ولاحظ أسلوب الشاعر (إن كنت راغباً) ، وانظر ماذا يقصد منه ، إن السياق سوف يجيبك إجابة واحدة ، إنه لا يقصد إلا ترغيبك وتشويقك ، ولا يبغى إلا أن يهزم دواعى الكسل والغفلة فيك ، وذلك كما يقول الطبيب لمريضه : « إن كنت راغباً فى الشفاء » فهو بذلك لا يخيره ، وإنما يحفزه ، ويُحمِّسه .

والتحميس ظاهر ، جلى فى أسلوب النداء « ياخاطب الحسناء » فإنه تنبيه على علو شأن المرغوب فيه (الحسناء) ، وإشارة على وجوب علو همة الراغب .

(ومن يخطب الحسناء ، لم يغله المهـــر)

وفى البيت نوع آخر من الترغيب ، وذلك بالإشعار بندرة الفرصة المتاحة ، ووجوب الإسراع فى اغتنامها (فهذا زمان المهر فهو المقدم) . وهو يوازن بين أساليب التشويق ، وعرض صورة جديدة للحسن تغرى الخاطب بالإقدام والمنافسة .

ولما جرى ماء الشباب بغصنها   تيقن حقاً أنه ليس يهـــزم

والصورة لجريان ماء الشباب بغصن الحسن والجمال ، توحى بالتدفق والحياة التى تستعصى على الهرم والفناء ، أو تستعصى على

الهزيمة أمام دواعى الشيخوخة (١) فلا فناء هنالك ولا شيخوخة بل شباب دائم ، خالد ، وغصن حى ، مورق ، نضر وكعادة الشاعر نراه هنا يوازن بين الترغيب والتحذير .

وكن مبغضاً للخائنات لحبها   فتحظى بها من دونهن ، وتنعم

ذلك أن هناك على الطريق المؤدى إليها عوائق ، ومحاذير فلتحذر من كل ما يعوِّق سعيك ؛ لتحظى بها وتفوز . فالمشهد يقدم لنا مقابلة بين الحور العين – بكل ما سبق من صفات الحسن الخالد والجمال الدائم – وبين الخائنات لحبها بما توحى الكلمة – كلمة الخيانة – من بشاعة وتنفير . .

* * *

ويستمر الشاعر فى العرض والحث .

وكن أيمًا مما سواها فإنهـــا   لمثلك فى جنات عدن ، تأَيمُ (٢)

إن الشاعر يستخدم فى الحث أسلوباً نفسياً ، متعمقاً ، ينفذ منه إلى مسارب النفس ، ومكامن الشعور ؛ وذلك بعرض صورة لواحدة من الحور العين وهى تقيم هناك فى جنات عدن ، تتأَيم من أجلك أنت ، وفى لهفة الانتظارك ، تعد الليالى والأَيام ؛ فلا أقل من أن تتأَيم كذلك لها جزاء بجزاء ؛ فلا تكون أقل منها فى حفظ العهد والوفاء .

---

(١) والتوجيه على اعتبار الروايتين (يهرم ، أو يهزم) .

(٢) تأيم : أصلها تتأيم ، والأيم : هو للعزب رجلا كان أو امرأة .

وبهذا يصل الشاعر بينك وأنت على الأرض ، وبينها وهى فى السماء وبعقد رابطة من الحب والوفاء !

وتلك صورة أخرى تهوّن عليك مشاق التأيم، بل وتحببه إليك، فتلتذ به .

وصم بومك الأدنى لعلك فى غد تفوز بعيد الفطر،والناس صوّمٌ

يعرض عليك الشاعر الأمر - أمر المجاهدة ، والتصبر فى سبيل الوصول إلى بلاد الأشواق ، يعرض عليك ذلك الأمر فى صورة الصيام ، وهى صورة محببة للنفوس ، توحى بتعبير خاص يعرفه الصائمون ، ويدركون لذته .

كما يتلطف فى بيان قلة المدة التى ستقضيها فى الصيام ، إنها « يوم وهو يوم أدنى ، قريب ، سرعان ما ينقضى، ثم يعقبه الفوز بفرحة الصائم وجائزته (عيد الفطر) ذلك الفوز الباهر وتلك الجائزة التى لا يستحقها إلا الصائمون .

ثم يترك الخيال ليرسم صورة الفرح ، المستبشر بالفوز بين قوم خاسرين ، محرومين (تفوز بعيد الفطر ، والناس صوم) .

وها هو يدعوك - بعد كل هذا التمهيد - إلى الإقدام ، وعدم القناعة بعيش حقير ، منغص ، يدعوك إلى الإقدام والجسارة؛ لأن من طبيعة اللذات ألا يفوز بها إلا المقدام الجسور .

* * *

ولنتابع الرحلة :

إننا نلمس الآن بعدًا جديدًا من أبعاد الرحلة ، ذلك البعد هو بعد الهجرة بما تشع الكلمة من مشاعر وظلال ، هجرة من مكان ضيق ، لا سبيل إلى الإقامة به . . وإلى اين ؟ إلى منازلنا الأُولى التى فيها المخيم . إنها هجرة أقرب إلى الفتح والعودة إلى الديار الأَولى بعد غربة ، وتشريد !

وإن ضاقت الدنيا عليك بأَمرها ولم يك فيها منزل لك يُعلم

يعنى إذا أفقت ، وأدركت حقيقة حالك ، فشعرت بالغربة فى هذه الدار الدنيا .

فحى على جنات عدن فإنها منازلك الأُولى ، وفيها المخيَّم

فهلُمَّ وأقبل إلى جنات عدن التى هى منازلك الأُولى قبل النزول منها ، إنها تناديك بالعودة إليها ، والهجرة من ديار الغربة التى ضاقت عليك بأَمرها ، وأذاقتك منغصاتها !

وهذه الصورة توضح مقصد الشاعر تماماً .

إنها صورتنا نحن وقد وقعنا أسرى فى أيدى عدو لا يرحم . ويظلل الصورة جو من الشقاء اللازم ، المحتم ، وهو يسأَلك : هل ترى فى جمع المأَسورين هذا من سعيد ؟ ! وهل يعرف السعادة من وقع فى أسر العدو ، يحوطه الشقاء ومن كل مكان ؟ ! .

* * *

ثم ينتقل إلى مشهد أكثر نمواً ، وتطوراً ، وارتباطاً بجو الغربة ؛ فيذكرنا بمشهد الغريب قد بعدت به الديار ، وغاب عن أوطانه ، ثم لم يترك لنفسه يعانى مرارة الغربة ، والجوى، بل تشتد به الأحوال ، فنراه ضعيفاً ، ذليلا ، مهاناً ، أمره ليس لنفسه ، وإنما للإعداء ، يتحكمون فيه ، ويتصرفون كما يشاءون !

ذلك لأنه يكون قد أسلم قياده إلى أعدائه ، وباع لهم روحه ونفسه ، يسومونه الخسف ، وأصناف البلاء .

ولله در ابن القيم ، كأنه يصف الحالة التى وصل إليها العرب ، والمسلمون فى وقتهم الحاضر ، فيصور مأساتهم بصدق !

مرارة الغربة ، وأهوال الأسر ، وتحكم الأعداء .

وبعد أن صور لنا المأساة ، يرسم طريقا للنجاة .

وحى على روضاتها ، وخيامهـا   وحى على عيش بها ليس يُسأَمُ

فإذا نحن فى الجنة من جديد ، نعيش بين خيامها وروضاتها قارن بين عيش منغص ، وعيش لا يُسأَم ولا يمل ، وقارن بين الإقامة وسط أعداء تتحكم ، والحياة فى الروضات والخيام .

* * *

وما دمنا قد عدنا إلى ذكر الجنة ، فليقف بنا الشاعر قليلا هنا ، ويحدثنا عن السوق الذى هو ملتقى المحبين ، وعن يوم المزيد الذى هو موعد أهل الحب والتكريم ، ويصف لنا الوادي الفسيح ، تربته

المسك ، ومنابره النور والفضة ، ثم يخبرنا عن مقاعد كثبان المسك فى منزلة دون منزلة منابر النور .

وأعظم من هذا كله ، التشويق للرؤية الخالصة ، مثل بدر التَّمِّ وصحو الشمس ، لا يشوبها الوهم أو الغيم .

ولأَن الموقف – يأْتى فى سياق التحضيض والعرض ، ولأَنه يجىء تلويحاً للغريب المسكين والأَسير العانى ، تلويحاً لهما بالنجاة ؛ .

نلاحظ أن المشهد يمر فى سرعة ، وتتابع ، بلا توقف ؛ فاللوحات تمر سريعة هنا ، بعد أن كانت بطيئة هناك ؛ لأُنها كانت هناك فى مقام الوصف الخالص ، أما هنا فالموقف قد اختلف . فالتلويح يجب أن يكون فى سرعة ، ووضوح ، والسرعة يبرزها الإيقاع ، والوضوح تظهره ظلال الكلمات (نور ساطع ، البدر وهو تم ، الشمس فى صحوها)

فبيناهم فى عيشهم ، وسـروروهم وأرزاقهم تجرى عليهم ، وتقسم

لاحظ حركة جريان الأَرزاق فى سرعة ، ثم لاحظ حركة سطوع الأَنوار فجاة ، ثم رفع الأَبصار ومفاجأَتهم التى يفيدها التعبير بإذا الفجائية .

إذا هم بنور ساطع قد بـدا لهم وقد رفعوا أبصارهم ، فإذا هم
بربهم من فوقهم ، قائل لهـم : سلام عليكم ، طبتم ، ونعمتم
سلام عليكم ، يسمعون جميعهم بآذانهم تسليمه ، إذ يسلِّم
يقول:«سلونى اماشتهيتم ؛ فكل ما تريدون عندى ، إننى أنا أرحم
فقالوا جميعاً :نحن نسأَلك الرضى فأَنت الذى تولى الجميل ،وترحم

ولأن المشهد جليل ، غاية فى الجلال ، نرى الصورة تبطىء شيئاً ما ، ونرى الشاعر يستخدم وسيلة فنية بارعة ، وهى الحوار . والحوار هنا ليس حواراً عادياً ، بل هو حوار متميز وفريد، إنه حوار مع الذات الإلهية (١) . . فى الجنة .

حوار يبدأ بالتسليم وينتهى بالتكريم ، يظلله جو الرضى والامتنان من جانب المحبين ، وجو الإكرام والرحمة والتفضل من الله عز وجل .

ومن الواضح أن أسلوب الحوار متباين بين منتهى الجلال والكمال والقدرة عند الله عز وجل .

يقول سلونى ما اشتهيتم فكل ما   تريدون عندى إننى أنا أرحم

وبين منتهى الخضوع ، والرضى ، والامتنان عند المحبين .

(فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضى   فأنت الذى تولى الجميل وترحم

فنراهم يهبون جميعاً بالتضرع ، والسؤال الممتزج بالمدح الصادق والثناء العظيم .

وذلك بعكس حوار توفيق الحكيم الذى لم يقدر الله حق قدره ونسب له سبحانه كلاماً وأساليب ، لا يلقيان بجلاله سبحانه . .

---

(١) لاحظ جلال هذا الحوار فى الأبيات ، وقارن بينه وبين سذاجة وتفاهة حوار توفيق الحكيم المزعوم مع الله سبحانه وتعالى عما يصفون :

مع التنبه إلى أن الحوار فى الأبيات ليس متخيلا وإنما قد وردت أصوله فى الأحاديث الصحيحة كما سنرى فى سياق الأبيات من الشرح إنشاء الله .

وهذه آية اقتدار لشاعرنا العظيم ابن القيم الذى استطاع أن يعبر بالحوار عن عظمة الله من جانب ، وتضرع المحبين من جانب آخر ، فى أسلوب فنى رفيع ، فارتفع بهذا وسما على من يزعمون أنهم أصحاب فن الحوار ، وهم لا يعلمون .

وماذا بعد هذا الحوار العظيم ؟

فيعطيهم هذا ، ويشهد جمعهم   عليه تعالى الله ؛ فالله أكرم

فأى تفضل ، وأى تكرم ، وأى فيض فى السماحة والجود !

* * *

والآن وقد انتهى الشاعر من مهمة التلويح بأطواق النجاة ، يُساءل من يرى أسباب النجاة أمامه وتيقنه منها : أله فى القعود عنها عُذْر؟ حقاً ، إن المسئلة ، مسئلة توفيق ؛ لأن البعض – ممن فارقهم التوفيق – يرضون بالدنية ، وبتحكم الأعداء ؛ فهم يقدمون ذلهم وهوانهم ويؤثرونه على الهبوب للخلاص والنجاة ، تراهم مقيمين على ما أُريد لهم من ضيم وكأنهم راضون به ، وقد شملهم الهدوء والسكون ، فلا قلق ، ولا ملل ، ولا سخط ، (وما أشبه هذا بحالنا – عرباً ومسلمين – فى الوقت الحاضر !) .

والشاعر يتوجه إلى هؤلاء – وإلينا – بنصائحه الغالية ، فى أسلوب من التقريع يناسب حال النائمين ، الغارقين فى الهوان والمذلة .

فيابائعاً هذا ببخس معجـــــل   كأنك لا تدرى ، بلى سوف تعلم !

وهو يلجأ - كما عودنا - إلى طريقته الأثيرة : التصوير والظلال فيقدم لنا هذه الصورة العجيبة لبائع لا يعرف أصول البيع والربح أو هو يعرف ولكنه بائع أحمق ، يبيع الجواهر النفيسة بالشيء الحقير - فهو يغتر وينخدع بالربح العاجل القليل الحقير عن الربح المنتظر الوفير - وإذا أدركنا مدى حرص التجار - فى واقع الحياة - على الربح والتفنن فى وسائله ، وعدم اغترارهم بصفقات خاسرة .

إذا تصورنا ذلك، علمنا مدى حمق البائع الذى يعرضه علينا المشهد أ ثم يقدم صورة أخرى ليست بعيدة عن جو التجارة (البيع والشراء) ولكنها هنا التجارة الرابحة .

فقدم - فدتك النفس - نفسك إنها   هى الثمن المبذول حين تسلم

تلك هى صورة تقديم النفس ثمناً مبذولاً لبلوغ الآمال والوصول . والوصول إلى بلاد الأشواق ، يقتضى الصعود والارتقاء مع تحمل المشاق فى رضى والتذاذ .

وخض غمرات الموت ، وارق معارج المحبة فى مرضاتهم، تتنسم

توحى الظلال هنا بمشاق الطريق (خض غمرات الموت) كما توحى بالصعود والارتقاء (وارق معارج المحبة) ومعارج المحبة توصل إلى رياض الرضى يضوع فيها النسيم .

ويعود إلى استعارة مصطلحات التجارة (التسليم والمعاقدة)

وسلم لهم ما عاقدوك عليه إن   تــرد منهم أن يبذلوا وسلموا

إنها صفقة فى يدك أنت إجراؤها ، فابدأ بالتسليم ،لتحظى بالربح الوفير ، والفوز العظيم

وأخيرا ، يدق الشاعر ناقوساً ، كأنه ناقوس الخطر ! إنه لا يريد أن يتركك قبل أن يستنفد كل وسائل التنبيه حتى يصل إلى هذا التنبيه الأخير الحاسم . فكأنما يقول :

إننى سوف أتركك الآن ،وإنى خائفٌ أن تقعد بك همتك عن رحلتك ، رحلة الصعود والنجاة .

فما ظفرت بالوصل نفس مهينة   ولا فاز عبد بالبطالة ينعم

المهانة والبطالة ؛ مهانة النفس ، والركون إلى البطالة هما أكثر ما يخاف عليك منهما الشاعر — حادى الرحلة ودليلها .

* * *

وإذا كان الشاعر قد تركنا فى المشهد السابق وقد حذرنا من معوقات الرحلة من مهانة النفس والإخلاد للكسل والبطالة .

نراه يبين لنا الآن لوناً خطيراً من ألوان التعويق من الارتفاع والتحليق إنها سُعدى — رمز الأمانى المخادعة — التى سلمتها أنت قياد قلبك ، فأصبح عندها أسيرا رهينا .

وإن تكُ قد عاقتك سُعدى   فقلبك المعنى رهين فى يديها ، مسلم

ولن تقنع سعدى بكل ما قدمته لها ، فها هى تبالغ فى إيذائك بوصال أعدائك !

وقد واعدت بالوصل غيرك ؛ فالهوى   لها منك ، والواشى بها يتنعَّم

وهكذا تكون المفارقة . منك الهوى والتقرب ، وللواشى النعيم ، فأَى غبن هذا ؟ . .

ومما يزيد من مساحة عرض العذاب ،وإفساح أقصى مجال له : استعارة كلمات من قاموس العشاق مثل « الهوى والوصال » والواشى ، الذى لا تخلو قصص العشاق منه .

كما أن الظلال تبرز الحركات النفسية وتصورها أبلغ تصوير . فكلمة عاقتك توحى بما قد وقعت فيه من كارثة محققة !

وكلمة « المعنَّى » تشى بما يقاسيه قلبك من عناء وعذاب ، وكلمة « رهين » توحى بقسوة الأَسر ومرارة الوقوع ، وقلة الحيلة ، وكلمة « مسلَّم » تدل على الانهزام والاستسلام ؛ فالظلال ـ إذن ـ ترسم لك مشهدا مؤثراً .

ثم ينمى الشاعر المشهد ، فترى سُعدى تلك التى تتودد إليها بالهوى ، تراها تميل إلى غيرك ، وقمة المأَساة أن يكون غيرك هذا هو عدوك الواشى ! فأَى عذاب وأى شقاء توحى به ظلال الكلمات ؟

* * *

وها أنت الآن قد وقفت على حقيقة سُعدى وأدركت خيانتها لك واستخفافها بشأَنك ، وتلاعبها بك . فما جزاؤها عندك ؟ .

فدعها ! وسل النفس عنها بجنة   من العلم فى روضاتها الحق يبسِم

نعم دعها ! هكذا فى حسم وحزم ؛ فليس لها جزاء إلا ذلك . فإن كانت نفسك لا تزال متعلقة بحبالها، فاقطع هذه الحبال واصرف نظرك وقلبك عنها وول وجهك قبلة أخرى ؛ وهذه القبلة الأخرى هى الجنة التى يختال فيها كل شىء بهناء وابتسام .

وهذه الصورة (فى روضاتها الحق يبسم) صورة مثيرة، تستجيش الحس والوجدان بشتى المشاعر ؛ ذلك أن النفس تتصور الحق والحقيقة فى صورة يحيطها الجفاف ، فينزع الشاعر منا تلك الصورة المنفره ؛ ليطبع فى وجداننا صورة للحق باسمة ، مشرقة ، وضيئة ! ويستبدل بتلك الصورة الجامدة ، المستقرة فى الوجدان ، صورة حية تكاد من الحياة أن تختال وتتبسم . بل هى حقاً تختال ، وتتبسم .

* * *

الرحلة الآن فى مطافها الأَخير :

لقد وصل بك الشاعر إلى هنا ـ الجنة ، بلاد الأَشواق والأَفراح ، لتبدأ أنت بعد ذلك رحلة أُخرى ، تعانى فيها ما عانى الشاعر من التياع ؛ وتحرق ؛ واصطبار ؛ وتحمل للمشاق . وإقدام لا ينظر للمخاطر ، وانطلاق لا يبالى بالعوائق .

ولكن الشاعر لا يتركك لتبدأ رحلتك الجديدة إلا بعد أن يُفرغ ويصب فى نفسك ، وقلبك ، ووجدانك كل كؤوس الترغيب والتشويق ؛ لتكون هذه الكؤوس المفعمة هى زادك الذى تتزود به فى رحلتك الطويلة ، إلى بلاد الأَشواق ، البلاد التى فتحت لك الأَبواب فى استقبالك ، واستعدت وتزينت للقائك .

وقد ذللت منها القطوف فمن يرد جناها ، ينله كيف شاء ويُطعمُ
وقد فُتِّحت أبوابها وتزينت لخطابها ، فالحسن فيها مقسم
وقد طاب منها نزلها ، ونزيلهـا فطوبى لمن حلوا بها ، وتنعموا
أقام على أبوابها داعىَ الهدى هلموا إلى دار السعادة ، تغنموا(١)

* * *

إن كل شىء هنا يدعوك إلى الإقبال ، فالقطوف دانية تدنو منك وتغريك ، والأَبواب قد فتحت وتناديك ، والجنة من أجل خطابها

---

(١) فى البيت اضطراب إذا أعربنا « داعى » فاعلا أما إذا اعربناه مفعولا به فلا اضطراب ويكون المعنى أقام الله على أبوابها داعى الهدى . والله أعلم .

- إن كنت من خطابها - قد تزينت والمنازل فيها قد طابت، تحثك على القدوم .

فإن بقى فى قلبك بعد كل هذا ذرة من تقاعس؛ فإن داعى الهدى يناديك بالنداء الحثيث (هلموا إلى دار السعادة تغنموا) ومن هنا يجىء الختام - ختام المطاف - فى حكمة حازمة ، حاسمة فيها التشويق ممزوج بنوع رهيب من الترهيب .

وقد غرس الرحمن فيها غراسه من الناس، والرحمن بالخلق أعلم
ومن يغرس الرحمن فيها فإنه سعيد ، وإلا فالشقاءُ مُحتّم

إن الصور والظلال تتحدث :

فصورة غرس الرحمن الجنة بمن ينتقى - وهو أعلم بمن ينتقى - وتعبير بالغرس يوحى بالصورة كاملة ، كما يوحى بانتقاء البذور قبل غرسها وبمدى المواءمة بين هؤلاء الذى يصطفيهم الله وبين الجنة ، كالعلاقة التى بين البذور وتربتها الصالحة .

ولكن الشاعر يظلل المشهد بجو من الترغيب والترهيب بكلمتى (السعادة ، والشقاء المحتم) .

وهكذا يجىء الختام - ختام رحلتنا - رحلة الأشواق والحنين .

إنه الختام الذى يلخص القصيدة ، ويلخص الرحلة .

إنه الإيقاع الأخير فى القصيدة التى حوت ذلك الحشد من الإيقاعات المتواكبة والصور المتتابعة فى تناسق رائع ، ونظام بديع . وكأن الشاعر قد أراد أن يكثف تجربته كلها بجميع جوانبها وأبعادها قبل أن يتركك ، لتبدأ أنت الرحلة من جديد ! .

ملامح نقدية سريعة

تحت هذا العنوان سوف نتناول - إن شاء الله - الخطوط العريضة للقصيدة ؛ فنتحدث عن عاطفة الشاعر، وسير القصيدة ، وعن أسلوب الشاعر ، ونعنى به التراكيب ثم نتحدث عن اللغة ونعنى بها الألفاظ المفردة ، كما نتحدث عن مظاهر الطبيعة فى القصيدة ، وقيمتها ، وبراعة الشاعر فى استخدامها ، ثم نختم بالكلام عن الصور والظلال ، وريادة الإمام ابن القيم فيهما على المستويين النظرى والتطبيقى ، والله الموفق .

أولا - العاطفة . . وسير القصيدة

تبدأ القصيدة بمشاعر الالتياع ، والشوق ، واللهفة ، والحنين فندرك أن وراء القصيدة إنساناً يعانى ، ويكابد ، ويتحرق .

فإذا انتقلنا مع الشاعر إلى موقف جديد أصبحت مشاعر المحبة ، والإجلال والتعظيم هى البارزة ، ولكنها لا تزال ممتزجة بمشاعر الشوق والحنين ، تعقب ذلك عاطفة جديدة هى الغبطة والانبهار بالسعداء الفائزين ، ثم نعود فى موقف الوداع إلى عاطفة الغرام المتأجج .

وتجىء مشاعر الصحو ، واليقظة ، والانتباه ، ممتزجة بمشاعر الشفقة مع مشاعر الاستهزاء والسخرية اللاذعة بالخائبين الخاسرين .

ثم نعود مرة أخرى إلى العاطفة الملتاعة الحزينة فى حسرة ومرارة

ولكنها تهدأ قليلاً فتبدو لنا عاطفة رضى هادئة ، ناعمة ممتزجة بملامح خفية من المرارة والحزن ، ولكنه الحزن الشفيف فى قالب من الشكوى الهادئة .

فإذا تقدمنا مع الشاعر أصبحت العاطفة هى عاطفة الإجلال والتعظيم، يعقبها الخوف، والرهبة، والإشفاق فى مشاهد يوم القيامة . بعد ذلك تبرز عاطفة الفرح المستبشر ، المطمئن عند الحديث عن الجنة ونعيمها .

ونصل بعد ذلك إلى الشعور بالغربة والاغتراب ، وبالمأساة مأساة الوقوع فى الأسر والمحن والكوارث ، مع الرغبة فى النجاة والخروج .

وأخيرا نلاحظ مشاعر الحرص على الحث والتحضيض لبلوغ هذه النجاة والوصول إلى بلاد الأشواق .

* * *

فالعاطفة — إذن — منسابة فى القصيدة ، بارزة فيها . وهى لا تقف على حالة واحدة لا تتعداها ، بل هى حية ، متطورة ، تنمو مع الموقف ، وليس معنى تعددها هذا أنها مجموعة من المشاعر قد اجتمعت فى القصيدة كلها وإنما هى مشاعر متواكبة ، تتابع فى نمو وتطور من درجة إلى درجة حتى تصل إلى الذروة .

ونستطيع أن نلخصها كما يلي :

١ - مشاعر الالتياع واللهفة ، التى تمثل الانطلاق .

٢ - مشاعر الحزن والضيق والغربة والشعور بالمأساة وهى تمثل « العقــدة » .

٣ - مشاعر التنعُّم والرضى بالوصول إلى بلاد الأشواق والأفراح التى تمثل مرحلة الذروة والحل .

وهكذا نتبين أن العاطفة فى القصيدة تواءم سير القصيدة متطورة ، نامية ، فى تجانس وتناسق وانسياب .

* * *

الأســلوب

ونعنى بالأسلوب الجمل والتراكيب التى يستخدمها الشاعر لنقل تجربته ومعاناته .

ولقد جاء الأسلوب معبرًا عن التجربة والمعاناة ، ومصوراً للعاطفة . فهو متناسب ، ومتناسق مع التجربة التى عاناها الشاعر ، وكابدها .

ولهذا نستطيع أن نقول : إن الأسلوب هنا يعتبر وسيطاً ماهراً لنقل هذه التجربة للقارىء ، يثير لديه الشعور المماثل لشعور الشاعر فى تجربته ، ويهىء له الجو النفسى الذى ينتشله من واقعه ليحلق به فى آفاق رحلته الروحية ، رحلة الأشواق .

كل هذا بالتعاون مع الوسائل الفنية الأخرى من ظلال وتصوير وحـوار ومناجاة . . .

وبعض الأساليب - كما رأينا - مقتبس من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وبعضها منتزع من ديوان الشعر العربى ، ولكن الشاعر يوظف هذه الأساليب التوظيف الحيوى الملائم لتجربته الفريدة الفذة . كما رأينا فى الاستعراض العام للقصيدة .

ويتراوح الأسلوب بين الخبر والإنشاء ، ويتفرع الأسلوب الإنشائى فنرى النداء ، والاستفهام ، والتمنى ، كما يستخدم الشاعر أسلوب المناجاة استخداماً جيدًا فى تعليل نفسه وإيهامها بالوصال والتلاقى ، ليعينها على مشاق الرحلة ، وكذلك يستخدم أساليب التعجب فى بمهارة وتفنن

(فلله كم من خيرة ، لله ذاك الموقف الأعظم ، لله ما أبهى زيارتهم)
كما يتفنن فى استعمال أساليب السخرية والتقريع ، فى المواقف المناسبة للسخرية والتقريع .

ويعود إلى أسلوب التمنى الذى يخفى وراءه أشواقه ورغباته ومخاوفه (ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة . . .)

ويستخدم الشاعر الجملة الفعلية فى الوصف والتصوير ليضفى الحركة والحياة على المشاهد كأنها تعرض عليك ، فإذا أراد أن يصف حالة لازمة ، ثابتة ، استخدم ما يناسب ذلك وهو الجمل الإسمية .

كما يستخدم الشاعر أساليب الحث والعرض والتحضيض ، وأساليب التحذير ببراعة واقتدار .

وأخيرا ، يختم القصيدة بأسلوب خبرى حاسم يظلله الشقاء ، والسعادة في تجاور عجيب .

اللغــــة

وهى الألفاظ والكلمات المفردة ، وقد رأينا كيف أن المفردات فى القصيدة ، مكثفة ، موحية ، غنية بالظلال ، زاخرة ، بالإشعاعات المتعددة الدرجات ، كل هذا فى تناسب مع الموقف والسياق ، فالمفردات فى القصيدة تقوم بوظائفها العضوية ، الحيوية كما رأينا فى كلمة (يستسعى) وفى كلمة (اصطبار) وغيرهما من الكلمات التصويرية التى تشيع جواً خاصاً ، مثيراً ، ومعظم المفردات مقتبس من قاموس العشاق ، وبعضها من البساتين والرياض والبعض من معجم الطبيعية ، والقليل من مصطلحات التجارة ، وهو يضفى على كل هذه المفردات من روحه العظيمة ما يبث فيها الحياة والتألق فإذا هى ألفاظ جديدة مشعة ، ذا سحر خاص ، ووميض عجيب .

ونستطيع أن نقول : إن اللغة فى مجملها سهلة ، وقريبة ، لا نشعر فيها بالتقعر أو التكلف حتى الألفاظ المعجمية نراها موظفة توظيفا عضويا خاصاً وأنه من اليسير فهمها من السياق مثل رأيت خيالاً فى منام سيصرم ، فتوحى بشدة الانقطاع ، مثل : (فولت سريعاً فالحرور تضرم) فتدل على فظاعة اشتعال النيران ولهيبها . وهكذا . .

* * *

جانب الطبيعة . . . فى القصيدة

الحديث عن الطبيعة ، ودورها فى قصيدة ابن القيم ، يمدنا بجانب جديد من جوانب تفرده وسموه ، وذلك بمقارنته بديوان الشعر العربى .

يقول الأستاذ الناقد : سيد قطب(١) .

« يخيل إلى من مجموعة الشعر العربى أن « الطبيعة » لم تكن — إلا قليلا — متصلة بإحساس الشعراء العرب ، اتصال الصداقة والألفة به اتصال المجموعة الحية ، فهى فى الغالب صلة عداء » .

« وظاهرة أخرى تغلب فى الشعر العربى ، وهى الإحساس بالطبيعة عند ألفتها كأنها منظر يوصف ، ويلتذ ، لا شخوص تحيا ، وحياة تدب . والمواضع التى أحس فيها الشعراء العرب بالطبيعة هذا الإحساس الأخير تكاد تعد » اهـ .

هذا هو شأن الطبيعة عند الشعراء العرب .

فما شأنها عند ابن القيم ؟ .

إن العلاقة التى نلحظها بين ابن القيم والطبيعة هى علاقة الصداقة الحميمة التى تكاد تصل إلى حد الامتزاج .

---

(١) كتب وشخصيات ، فصل الطبيعة فى الشعر العربى ص ٥٨ .

وإن الطبيعة عنده ليست مجرد حلية أو وصف خارجى ، وإنما تقوم بدور حيوى عضوى فى القصيدة .

فهو عندما يذكر طلوع الشمس والنهار ؛ إنما يذكره لأنه علامة تسليمه على الأَحباب ، كما أن الروْح والريحان يمتزجان بالسلام فى كل ساعة وآن .

فإذا تذكر نسمات الريح، فإنه يرثى لها ما تحملت ، وكابدت من آلام الصبابة حتى لم تعد تطيق كتماناً ، إنه يرى فيها نفسه المعذبة ، فأنشأ بينه وبين نسمات الريح – وهى مظهر من مظاهر الطبيعة – صلة عميقة تصل إلى درجة التوحد والامتزاج .

سلوا نسمات الريح كم تحملت   محبة صب شوقه ليس يُكتم !
وشاهد هذا أنها فى هبوبهـا   تكاد تبث الوجد لو تتكلم !

إنه يصور هذه النسمات المعذبة فى صورة حية ، ويضفى عليها حياة ثرية ، فهى فى هبوبها تكاد تبث وتنشر أسرار الوجد والهوى .

وبهذا يكون الشاعر قد جمع بين تصوير الطبيعة – متمثلة فى نسمات الريح – فى صورة حية ، شاخصة ، وبين مزج نفسه فيها مزجاً كلياً . حتى لنتساءل : هل يتحدث عن عذاب نسمات الريح أم عن عذابه هو نفسه ؟ !

كما يستخدم الشاعر مظاهر الطبيعة فى الوصف التمثيلى الصادق فظل الشمس يشبه الدنيا فى الإيحاء النفسى لكليهما عند الشاعر (سرعة الزوال رغم الإشعار بعدم التحرك) .

ومزنة الصيف كذلك (فى التولى سريعاً بعد الركون ، والاطمئنان إليها وتصديق ما تمنى به) فوجه الشبه ليس هو الحس والظاهر وإنما العلاقات النفسية الباطنة بين المشبه والمشبه به .

وهو فى أحيان قليلة يتابع الموروث العربى فى استخدام الطبيعة استخداماً ظاهراً حسياً ،مثل تشبيه الحور العين بالغصن الرطيب ، والخدود بالورد ، ولكن مع إضفاء شىء من روحه العظيمة تنقل هذه المتابعات إلى آفاق أسمى وأرحب .

* * *

الصـــور والظـــلال

وقفنا أثناء الاستعراض العام - عند الصور والظلال فى القصيدة وكان الوقوف يطول بنا أحياناً للتملى فى روعة هذه الصور ، وتلك الظلال . وأحب هنا أن أشرح بشىء من التفصيل ما قصدناه من هذا التعبير ، إن صاحب هذا التعبير هو الأديب الكبير والناقد الأستاذ سيد قطب الذى يعتبر رائد العصر الحديث فى هذا الشأن .

وإنما قلت رائد العصر الحديث ؛ لأنبه على أن هناك رائداً آخر سبق الأستاذ « سيد قطب » فى هذه الطريقة البديعة - طريقة الصور والظلال - ذلك الرائد هو الإمام ابن القيم نفسه !

وهذه الجولة مع ابن القيم تبين لنا مدى إدراكه وتأثره بهذه الطريقة فى قراءته للقرآن الكريم وفى كتبه جميعاً .

انظر أولاً إلى تعليقه على قول الله تعالى فى سورة النور « الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم(١) يقول : « وضرب الله عز وجل لهذا النور ، ومحله ، وحامله ومادته ، مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط فى مثل الصدر (أى صدر المؤمن) وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه ، وصفائه وهى مثل القلب . وشبهها بالزجاج لأنها جمعت أوصافاً هى فى قلب المؤمن : وهى الصفاء والرقة ، والصلابة . فيرى الحق والهدى بصفائه ، ويحصل منه الرأفة ، والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلظ عليهم ، ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته . ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعدها ، وتعاضدها » (٢) .

لاحظ كيف يتتبع ابن القيم ملامح وجزئيات المشهد فى دقة وصبر ، وينميه مستخدماً فى ذلك ظلال الكلمات ، مع ربط كل ذلك بصورة أخرى ، هى صورة النور فى قلب المؤمن . ويتجلى المشهد مكوناً من النور ومكان هذا النور ، والأشخاص وهم حاملو النور وأصحابه ، ثم مادة النور ، فنتصور المشكاة — الفتحة — فى مكانها بالجدار وقد وضعت فيها الزجاجة ، التى هى من أصفى الزجاج مثل

(١) سورة النور الآية ٣٥ .
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب — الطباعة المنيرية ص ٦٩ .

الكوكب الدرى فى بياضه وصفائه ، ثم يتعمق فى ظلال كلمة الزجاج فيراها توحى له بأوصاف متعددة بلا تنافر ، فيراها توحى بالصفاء والرقة كما توحى بالصلابة فى آن ! وتمده بصورة كاملة لصفات المسلم المتعددة فى تلاحم وتوازن من رأفة ورحمة وشفقة ، مع جهاد وشدة وغلظة وصلابة فى الحق ، دون أن تبطل صفة أخرى ، أو تعارضها بل تساعدها ، وتعاضدها !

انظر إليه يتعمق فى الصور والظلال أكثر وأكثر :

« وفى الزجاج مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن ، تصيبها الشمس فى أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيوت ، وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار » (١)

إنه يضيف إلى الصورة بعض التفصيلات الخاصة ، التى تساعد على إبرازها متكاملة حية ، كما يقف عند ظلال كلمة (زيت) فيراها توحى بالصفاء ، والبعد عن الكدر ، والشوائب حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ثم يربط ظلال هذه الكلمة بصورة الوحى فى قلب المؤمن فيقول : وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، وهو من شجرة الوحى ، التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها عن الانحراف .

اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نورا »

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .

وهذا مثال جيد يدل على مدى إدراك ابن القيم لقيمة الصور والظلال فى تفسيره للقرآن الكريم . وهو لا يقف بنا عند هذا الحد بل يتعمق كذلك فى ظلال كلمة النور ويراها توحى بالحياة فيقول « لأن الحيوان — الكائن الحى — إنما يتكون حيث النور .

ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون البتة »

ثم يربط ذلك بمثال جيد فيقول :

« فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ميتة ، وقلب فقد منه هذا النور ، ميت ولابد . . . ولا حياة له البته ، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه » .

ويستدل على ذلك « بأن الله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور كما فى قوله تعالى : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ، ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا (١) » .

يقول : « أى جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نوراً لما يحصل به من الإشراق ، والإضاءة ، فهما متلازمان ؛ فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة » (٢) .

---

(١) سورة الشورى من الآية (٥٢) .

(٢) الوابل الصيب ص ٧١ .

ويفرق بين ظلال كلمتى النور ، والنار فيقول فى قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » (١)

« قال جل جلاله : ذهب الله بنورهم ولم يقل بنارهم ؛ لأن النار فيها الإحراق والإشراق ؛ فذهب بما فيه من الإضاءة والإشراق ، وأبقى عليهم ما فيه من الأذى والإحراق (٢)

وقد رأينا كيف استفاد ابن القيم من هذه الظلال فى قصيدته وخاصة فى الصورة التى شاهدناها فى قوله :

ويا موقدا ناراً لغيرك ضــــوءها وحر لظاها بين جنبيك يضرم

فجعل الإشراق لغيره ، والإحراق وقفاً عليه ، بين جنبيه .

ثم يتعمق فى ظلال النور درجة أرقى ؛ فيراه يوحى بالصعود والمعراج : « فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ، ومصدر عن النور ، ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور ، ولما كانت مادة الملائكة من نور كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى (٣) .

رأينا فى هذا المثال ملامح طريقة التصوير والظلال فى محاولة

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧ :
(٢) الوابل الصيب ٧٢ .
(٣) السابق ٨٠ .

بناء صورة حية ، غنية باستخدام التفصيلات الدقيقة ، التى تطبع الصورة فى الحس والوجدان وإبراز الحركات النفسية ، وراء الصورة والمشهد ، ورأينا كيف يعيش ابن القيم ، ويتعمق فى ظلال الكلمات ، يطيل عندها الوقوف ليحظى بكثير مما تشعه الكلمة من إشعاعات وايحاءات بلا ملل أو سأم .

وإلى مثال آخـــر :

قال تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين » (١) .

يقول ابن القيم : الصَّيِّب الذى يصوب من السماء : أى ينزل منها بسرعة وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ، وكالمطر الذى به حياة الأرض ، والنبات ، والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات ، والمثلات التى حذر بها الله من خالف أمره ، وأخبر أنه مُنزلها بمن كذب رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كالجهاد ، والصبر على الأمر أو الأوامر الشاقة على النفوس التى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات ، والرعد ، والبرق . ولكن من علم مواقع الغيث وما يجعل به من الحياة لم يستوحش بما معه من الظلمة ، والرعد ، والبرق

(١) سورة البقرة الآية ١٩ .

بل يستأْنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب ، وأما المنافق فإنه عمى قلبه ولم يجاوز بصرُهُ الظلمةَ ، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيماً ، وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه ؛ لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يتخطف معه بصره ؛ لأَن بصره أضعف من أن يثبت معه فى الظلمة ، يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً ، لا يدرى أين يذهب (. .) وأما من أنس بالصيب ، وعلم ما يحصل به من الخير ، والحياة ، والنفع وعلم أنه لابد فيه من رعدٍ وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأَنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيِّب » (١) .

هذه صورة ناطقة ، وهذا عرض متكامل . تتبع فيه ابن القيم كل ملامح الصورة وعرضها فى صدق وتفنن ، وهو لم يغفل الحركات النفسية وراء الأَحداث ، لقد استبطن وغاص فى أعماق النماذج الإنسانية التى قدمها لنا .

لقد أعطانا نموذجين نفسيين ، متقابلين ، وهما من الوضوح ما يغنى عن الإعادة ، وعليك أن تتأَملهما فى المشهد، وتراقب حركاتهما الظاهرة والباطنة ، كل ذلك من خلال مشهد حى ، مثير .

---

(١) الوابل الصيب (٧٣ ، ٧٤) .

لقد بدأ برسم المشهد .. وظروف المشهد .. فعرض علينا الصيب ينزل فى سرعة والمطر ينهمر ، كما عرض علينا صوره المؤمنين وهم ينهلون من خير هذا الصيب ، دون مبالاة مما يصحب ذلك من مظاهر أُخرى للطبيعة من رعد ، وبرق ، وظلمات ؛ وذلك لاستئناسهم وفرحهم بالحياة والخصب ، وهذا هو النموذج النفسى الأول الذى يفيض بشراً واطمئناناً .

وفى المقابل له نموذج آخر للهلع والجبن ، والعجز ، ويتفنن ابن القيم فى رصد الحركات النفسية فى دقة لهذا النموذج الذى لا يرى إلا الواجهة المظلمة ، ويغفل عن جوانب الإشراق والخير .

أما عن إدراك ابن القيم — رحمه الله — لقيمة الظلال فيتجلى لنا واضحاً فى شعوره بأَن كلمة الصيب ، توحى بالسرعة التى تناسب المقام كما أدرك أن الكلمة غنية بظلالها — ولعل هذا سر اختياره لها عنواناً للكتاب ((الوابل الصيب)) .

كما أدرك أن للكلمة إيحاءً بالحياة والخصب ، ومن ظلال الرعد والبرق ، والظلمات ما توحى به من تهديد ، وعقوبات ومثلات بل وما تلقيه فى نفوس المفزوعين من رعب ، ووحشة . كل هذا يجعلنا على ثقة واطمئنان حين نقول إن ابن القيم هو رائد هذه الطريقة الفريدة .

فإذا كان الأَمر — كما يقول الأَستاذ « سيد قطب » : « رحم الله

عبد القاهر (١) لقد كان النبع منه على ضربة معول ، فلم يضربها » .

فإن الإمام ابن القيم قد أدرك النبع وضرب المعول ، فى ثقة ويقين واقتدار حتى أخرج لنا منه الماء الزلال .

وإليكم مثالا ثالثاً فى ظلال قوله تعالى من سورة الرعد : « أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاعٍ زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأَما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأَرض . كذلك يضرب الله الأَمثال (٢) .

وانتظر كيف يعيش الإمام ابن القيم فى ظلال هذه الآية الكريمة ، وكيف توحى له بمشهد رائع بديع ، ينقله لنا فى صدق .

فيقول : « فهذا المثل المائى بشبّه الوحى الذى أنزله لحياة القلوب بالماء الذى أنزله من السما ، وشبّه القلوب الحاملة له بالأَودية الحاملة السيل (. .) فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ، كما سالت الأُودية بقدرها ، ولما كانت الأَودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله ، فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً . يمر عليه متراكباً ، ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأَرض ، فيقذف الوادى ذلك الغثاء ، إلى جنبيه حتى لا يبقى منه شىء ، ويبقى

(١) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة (ولد عام ٤٠٠ ﻫ وتوفى عام ٤٧١ ﻫ) .

(٢) سورة الرعد (الآية ١٧) .

الماء الذى تحت الغثاء ، يسقى الله – تعالى – به الأَرض » (١) .

ثم يتابع ظلال الكلمات – كعادته – فيراها تستدعى ذكر الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأَرض ، ويتابعها بدرجة أرقى فيراها توحى باستخراج الكنوز ، والأَشجار ، وإلقاء البذور فى أرض قابلة للزرع والنبات، وورودها كل بحسبه « قد علم كل أناس مشربهم » (٢) .

هكذا يستعرض ابن القيم صور القرآن ، لا تفوته أدنى ملاحظة وإن دقت ، ثم يبين لنا الصورة الحية والعرض المتكامل .

وهو يستطرد مع ظلال الكلمات ، ويتعمقها درجة ، بعد درجة حتى يخرج منها بالإشعاعات الباهرة والإيحاءات الغامرة ؛ فذكر الأَودية يصور له منابع السيول فيها الغثاء ونحوه ، مما يمر عليه السيل فيحتمله ، فيطفو على وجه الماء ، زبدًا عالياً .

ويتصور تحته الماء الفرات الذى يوحى بالخصب ، والحياة . كما يتصور حركة الوادى ، وهو يقذف ذلك الغثاء على جانبيه ، فيبقى الماء الفرات خالصاً ، يسقى الله تعالى به الأَرض، فحيى به البلاد والعباد والشجر والدواب . وهو يلقى الحياة على الكائنات ؛ فيتمثل الغثاء وهو يُلقى جفاء مطروحًا على شفير الوادى .

ولا يقف بنا عند هذا المدى من التصوير الرفيع – وإنما يعطى

---

(١) الوابل الصيب ص ٧٥ .

(٢) جزء من الآية (٦٠) سورة البقرة . وانظر الوابل الصيب ص ٧٧ .

لكل رمز مدلوله النفسى ، ليزيد من مجال العرض بعداً نفسياً وإنسانياً عميقاً . بل ويسمو به الخيال ، ويتطوح به عالياً ؛ فيرى الأَنام يتسابقون على هذه الأَوديه وقد علم كل أناس منهم مشربهم .

ونحن – إذ نكتفى بهذه الأَمثلة الثلاثة هنا – نحيل القارى المتشوق إلى المزيد ، نحياله إلى كتب ابن القيم كلها ، فهى غنية بهذه النماذج الحية الرائعة .

بل إن عنواين كتب ابن القيم نفسها غنية بهذه الناحية التصويرية الموحية ، مما يدل على تشبع خيال ابن القيم بها واستحضارها فى ذهنه على الدوام .

وهذا كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » دليل على ما أقول لى كما رأينا فى ظلال كلمة الصيب ، وما توحى من سرعة فى النزول والإغاثة . وما تحمل من معانى الغنى ، والثراء ، والخصب ؛ فجمعت بذلك بين التصوير والتظايل ؛ تصوير الوابل وهو ينزل من السماء سريعاً ليدرك الملهوفين ، المستغيثين ، وظلال الكلمة التى توحى بالخصب والحياة والنماء ، فلا تملك النفس إزاء هذه الصورة ،وتلك الظلال إلا أن تتأَمل فى انبهار ، وتشوق .

ومثال آخر من عناوين كتب ابن القيم ، وهو كتاب « حادى الأَرواح إلى بلاد الأَفراح » الذى ألفه فى وصف الجنة والتشويق إليها

فالعنوان ، صورة وظلال ، إنه مشهد يعرض علينا حداء الأَرواح كأَنها القافلة يتقدمها الحادى ، يحدو خطاها ، يطربها ويشوقها ويعينها

على مشاق الطريق ، بالحداء العذب الجميل ، حتى نصل أخيراً إلى بلاد الأَفراح بما توحى من النعيم والسعادة .

فالبلاد : تدل على الأَمل . . أمل القافلة المتعبة — قافلة الأَرواح فى الوصول ، وكلمة الأَفراح توحى بعاقبة الرحلة ونهايتها من فوز محقق ، وسرور عميم .

ومثال ثالث وهو كتاب : « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان إنه كذلك صورة حية وعرض متكامل ، نطالع فيه ذلك الملهوف المسكين واقعاً فى حبائل الشيطان ومصائده ، يستغيث ويصرخ فإذا الاستغاثة تنزل عليه وتدركه ، وتخلصه مما وقع فيه .

* * *

لهذا . . . ولأَمثلة أخرى كثيرة كنا نصف طريقة ابن القيم فى التصوير والظلال بأَنها الطريقة الأَثيرة لديه ، لأَنها مختارة عنده ، محببة إلى نفسه ، يلجأُ إليها فى مختلف المجالات ؛ فمثلا عندما أراد أن يفسر لنا معنى الاستعاذة فى قولنا « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نراه يلجأُ إلى التصوير والتظليل كذلك . فيقول : « أعوذ : مأَخوذة من الستر ، أو مأْخوذة من ازوم المجاور ، فأَما من قال إنه مأْخوذ من الستر فقال : « العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة ، التى استتر بها (عوْذ) فكأَنه لما عاذ بالشجرة ، واستقر بأَصلها وظلها سموه (عَوْذا) ، فكذلك العائذ ، من استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه ، ومن قال : هو لزوم المجاورة ،

قال : العرب تقول للحم إذا أُلصق بالعظم ، فلم يتخلص منه : (عوذ) لأَنه اعتصم به ، واستمسك به ، فكذلك العائذ ، قد استمسك بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه ، فهما قولان » (١) .

والإمام ابن القيم يرى أن القولين حق ، ولكنه لا يدلى برأيه هذا فى صورة مباشرة وإنما يلجأُ — كما عودنا — إلى طريقته المحببة ، الأَثيرة فيقدم لنا ذلك المشهد الحى ، والعرض المتكامل ، والصورة الغنية بالحركة النفسية ، والحياة . مستفيداً من ظلال الكلمة أعظم الاستفادة .

يقول : « والقولان حق ، والاستعاذة تنتظمها معاً ؛ فإن المستعيذ مستتر بمعاذه ، مستمسك ، معتصم به ، قد استمسك قلبه به ، ولزمه كما يلزم الولد أباه ، إذا أشهر عليه عدوه سيفاً ، وقصده به ، فهرب منه ، فعرض له أبوه فى طريق هربه ، فإنه يلقى نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك ؛ فكذلك العائذ قد قرب من عدوه الذى يبغى هلاكه إلى ربه ، ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يدية ، واعتصم به ، والتجأَ إليه » (٢) .

هكذا يعرض ابن القيم المشهد الملىء بالحركة ، النابض بالحياة مع إبراز الحركات النفسية — فى جلاء ووضوح — لشخصيات المشهد ، أولاً : الطفل وهو خائف ثم وقد اطمئن لرؤية أبيه فيفزع إليه يتمسك به ، ويلقى نفسه بين يديه ، ملتقطاً أنفاسه ، والعدو وهو

---

(١) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٦ المطبعة السلفية .
(٢) تفسير المعوذتين ص ٦ .

طاغ أولاً ثم يعروه الخزى عند ظهور الوالد ، والوالد وهو يتلقى ولده الذى كان قد أشرف على الهلاك .

ولمزيد من الأَمثلة ، نحيل القارئ إلى كتب الإمام ابن القيم جميعاً

* * *

والخلاصة : أن الإمام ابن القيم هو رائد طريقة الظلال والصور ، فى تراثنا العربى ، ليس بالأَمثلة والنماذج التى قدمها فى تفسيره للقرآن ، ووقوفه متـأَملاً لصوره وظلاله ، ليس هذا فحسب ، وإنما لتشبثه الكامل بهذه الطريقة فى نثره ، وشعره على السواء ، ولا سيما فى قصيدته الميمية (الرحلة . . إلى بلاد الأَشواق) التى رأيناها معرضاً غنياً للصور والظلال لى

* * *

---

(١) إن مجالات الريادة عند ابن القيم متعددة ، فهو رائد التفسير الموضوعى واكتشاف الوحدة العضوية للسورة فى القرآن الكريم .

انظر : منهج ابن القيم فى التفسير تأليف محمد أحمد السنباطى مجمع البحوث الإسلامية .

ونعود الآن لنستأنف الحديث عن الملامح النقدية السريعة .

الملامح الإنسانية . . فى القصيدة

يقول الأستاذ الناقد « سيد قطب » فى كتابه : كتب وشخصيات تحت عنوان (النفس الإنسانية فى الشعر العربى) .

« فإذا نحن نظرنا إلى الشعر العربى ، بهذه العين – يعنى من جهة البحث عن الملامح الإنسانية فيه – وجدناه فقيراً فى الظلال الإنسانية والحالات النفسية ، بمقدار ما هو غنى بالأفكار والمعانى ، والاستجابات الحسية المباشرة ، التى لا تتعمق النفس الإنسانية إلى مدى بعيد » .

« والتعبير العربى ، وبخاصة فى الشعر ، تعبير مباشر ، أقرب ما يكون إلى الاستجابة الحسية ، فهو يؤدى الفكرة ، أو المعنى ، ثم لا تلمح وراءه مخلوقاً إنسانياً إلا نادراً » .

« إنك تلمح ولا شك فكراً أو حساً ، ولكن المخلوق الإنسانى الذى يشتمل الفكر والحس ، ويشتمل بجوارها حياة آدمية ، كاملة . قلما تلمحه وراء التعبير » .

« فهى – أى اللغة العربية – فى شعرها ، لا تلقى حولها ظلاً (١).

---

(١) إن العبارة تشير إلى أن العيب فى اللغة العربية ، وهذا خطأ فادح ، لأن اللغة العربية – كما رأينا فى كل ما سبق – هى لغة الظلال والتصور ، إنما العيب فى شعراء العرب الذين لم يستغلوا هذه القيمة فى شعرهم .

وهذا هو ابن القيم قد أخرج لنا قصيدة زاخرة بالظلال والرؤى التى تثير شتى الخيالات.

ليس هناك ما يسمونه (بين السطور) كل لفظ ، وكل تعبير يقابله معنى أو فكرة ، ثم لا شيء وراء المعنى ، ووراء الفكرة ، لا ظلَّ ، ولا صورة ، ولا رؤى سحرية تثير فى النفس شتى التخيلات ، وشتى الاهتزازات » (١) .

هذا هو ما لاحظه الناقد الكبير على ديوان الشعر العربى ، ولكننا بقراءة قصيدة ابن القيم — واسترجاع ، كلماتها التصويرية ، ومشاهدها الحية ، ونماذجها الإنسانية الشاخصة الحاضرة ، يتبين لنا مدى سمو هذه القصيدة على ديوان الشعر العربى جميعاً فى هذا الجانب ، بلا أدنى مبالغة .

وأحب أن أذكر بأن هذا هو الحكم الصحيح اعتماداً على المقاييس الصحيحة التى تراعى الصدق الفنى ، والقيم الإنسانية ، وليس بالمقاييس الزائفة التى هاجمناها فيما سبق .

* * *

إن القصيدة الميمية ، تكشف عن ثراء لغتنا فى جانب التصوير والظلال ، كما تدين الشعراء الذين لم يروا فيها إلا الجانب الحسى المباشر الفقير .

ولهذا نقول : إن هذه القصيدة دعوة إلى الانطلاق إلى آفاق عظيمة ، رحيبة .

* * *

---

(١) كتب وشخصيات .

الرحلة . . . إلى بلاد الأشواق

« القصيدة الميمية »

١ - أشواق

إذا طلعَتْ شمْسُ النّهارِ ، فإنّها
أمارةُ تسْلِيمِي عليْكُم ، فَسَلِّمُوا (١)
سلامٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فِي كُل سَاعَة
ورَوْحٌ ورَيْحانٌ ، وفضْلٌ ، وَأنْعُمُ(٢)
عَلَى الصَّحبِ ، وَالإخْوَانِ والوِلْدِ والألى
دَعَوْهُم بِإحْسَان ، فجَادُوا ، وأنعموا (٣)
وَسَائِر منْ لِلسُّنَةِ المحْضةِ اقتفىٰ
ومَا زاغ عنْها ، فهُو حَقٌ مُقَدَّمُ (٤)
أُولئِكَ أتْباعُ النَّبِيِّ ، وحِـــزْبُهُ
ولوْلَاهُمُ مَا كانَ فِي الأَرْضِ مُسْلِمُ (٥)

---

(١) الأمارة : هي العلامة وزناً ومعنى . المصباح المنير :

(٢) روح ، وريحان : الروح بإسكان الواو : الراحة ، والرحمة ، ونسيم الريح ، والريحان : نبت طيب الرائحة ، أو كل نبات كذلك ، أو أطرافه ، أو ورقه . القاموس المحيـط .

(٣) جادوا : جاد الرجل يجود ، جوداً (بالضم » : تكرم فهو جواد وجاد بنفسه أي سمح بها عند الموت . المصباح المنير ، والألى : الذين .

(٤) السنة المحضه : أي الطريقة المحمودة ، الخالصة . والمحض هو الذى لم يخالطه غيره ، ومحضته الود أي صدقته ، زاغ : مال .

(٥) حزبه : الحزب هو الطائفة من الناس ، والجمع أحزاب والمقصود هنا أهله وأتباعه صلى الله عليه وسلم .

ولوْلَاهُمُ كَادتْ تمِيدُ بِأَهْلِهَــــا
ولكِنْ رَوَاسِيهَا ، وأوْتَادُهَا هُمُ (٦)

وَلَوْلَاهُمُ كانتْ ظلاما بِأَهْلِهَــــا
ولٰكِنْ هُمُ فِيها بُدُورٌ ، وأنْجُــمُ (٧)

أُولٰئِكَ أصْحابِىَ ؛ فحَىَّ هلَا بِهِــمْ
وحىَّ هلَا بِالطَّيِّبِين ، وَأنْعِــمُ (٨)

لكلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ سلَامُ يخُصُّــهُ
يُبلِّغُهُ الْأَدْنى إليْهِ ، ويَنْعِــمُ (٩)

فيامُحْسِنا ، بلغْ سَلَامِى ، وقُلْ لهُمْ :
مُحِبُّكُمْ يدْعُو لكُمْ ، وَيُسلِّمُ (١٠)

ويَالائِمِى فِى حُبِّهِمْ ، وولائِهِــمْ
تـأَمَّلْ ــ هداكَ اللهُ ــ منْ هُو ألْوَمُ (١١)

بِأَى ؟ دلِيلٍ أمْ بِأَيَّــةِ حُجَّــةِ
ترى حُبَّهمْ عَارًا علَىَّ ، وتنْقِمُ ؟ (١٢)

---

(٦) تميد : تتحرك وتميل ؛ رواسيها : أوتادها .

بدور : جمع بدر .

(٨) حى هلا : قال ابن قتيبة : معناه : هلم ، يقال : حى على الفداء أو إلى الغداء أى أقبل وهلم (المصباح المنير) .

وقال فى القاموس المحيط : « حى : أى اعجل ، وهلا أى حثيثاً أو أسرع ، وحى هلا بفلان : أى عليك به ، وأنعم : أى وأنعم بهم .

(٩) الأدنى : القريب .

(١٢) تنقم : تعيب ، وتكره أشد الكراهية ، قال تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (البروج : ٨) أى وما طعنوا فيهم وقدحوا .

وما الْعارُ إلَّا بُغْضُهم ، واجْتِنابُهـمْ
وحُبُّ عِدَاهُمْ ذَاك عارٌ ، ومأْثَمُ (١٣)

أما والَّذِى شقَّ القُلُوبَ وأوْدَع ، الْـ
ـمحبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لَا تَتَصَرَّمُ (١٤)

وحمَّلها قلْب الْمُحِبِّ ، وإنَّـــهُ
ليضْعُفُ عنْ حمْلِ الْقَمِيصِ ، وَيَألَمْ (١٥)

وذلَّلها حتَّى استكانَتْ لِصولةِ المَحبَّةِ ، لَا تَلْوى ، ولَا تَتلَعْثَمُ (١٦)

وذلَّل فِيها أنْفُسا دُون ذُلِّهــــا
حِياضُ الْمنايا فوْقَها ، وهْى حوَّمُ (١٧)

لَأنْتُمْ علَى قُربِ الدِّيارِ ، وبُعْـدِها
أحِبَّتُنا ، إنْ غِبْتُمُ ، أوْ حضرْتُـمُ (١٨)

---

(١٣) عداهم : أى أعدائهم . مأثم : المأثم هو الوقوع فى الإثم ؛

(١٤) شق القلوب : يقال : شق الكلام أى أخرجه أحسن مخرج ، وشق النبت وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . تتصرم : الصرم هو القطع البائن ، أو أى قطع ، تتصرم : تتقطع . أودع : يقال أودعه مالا أى دفعه إليه ليكون وديعة عنده .

(١٥) يألم : يتألم .

(١٦) ذللها : قادها ، وذللت القطوف أى ، استكانت : خضعت .

الصولة : الوثبة ، والقهر ، « واللهم بك أصول » أى أسطو وأقهر ؛

لا تلوى : يقال لا يلوى على أحد ، أى لا يقف ولا ينتظر .

(١٧) حياض المنايا : الحياض جمع حوض ، والمنايا جمع منيه وهى الموت ، واشتقاقها من منى له (بالبناء للمجهول (أى قدر له .

حوم : حام الطائر حول الشىء دار ، وهى جمع حائم مثل صائم وصوم ؛

سلُوا نسماتِ الرِّيحِ كمْ قَدْ تحمَّلتْ
محبَّة صبٍّ ، شوقُهُ ليْس يُكْتَمُ ! ! (١٩)

وشاهِدُ هَذا أنَّها فِي هُبُوبِها
تكادُ تبُثُّ الْوجْدَ ، لوْ تتكلمُ ! (٢٠)

وكُنتُ إذا ما اشْتَد بِى الشَّوْق ، والْجوىٰ
وكادَتْ عُرَىٰ الصَّبْرِ الْجميلِ تفصَّم (٢١)

أُعَلِّلُ نَفْسِى بالتَّلاقِى ، وقُرْبِهِ
وَأُوهِمُهَا ، لكِنْهَا تَتَوهَّمُ (٢٢)

وأُتْبِعُ طرْفِى وِجْهَةً أنْتُمُ بِهَا
فلِى بِحِماها ، مَرْبَعٌ ، وَمُخيَّمُ (٢٣)

---

(١٩) صب : الصبابة : الشوق ، وقيل رقة الشوق وحرارته ، والصب هو العاشق المشتاق . انظر لسان العرب .

(٢٠) تبث : تنشر ، وأبثه سره أى أظهره له . . الوجد : يكون فى الحزن ، وفى القاموس إنه فى الحب فقط .

(٢١) الشوق : نزاع النفس إلى الشىء . الجوى : الحرقة ، وشدة الوجد من عشق أو حزن . عرى الصبر : جمع عروة وهى ما يتمسك به « فقد استمسك بالعروة الوثقى » . وعروة الدلو ، مقبضه . تفصم : تتكسر . قال تعالى « لا انفصام لها : » أصلها تنفصم وحذف إحدى التاءين .

(٢٢) أعلل نفسى : أشاغلها ، وألهيها ، وتعلة الصبى ما يتعلل به ليسكت (لسان العرب ، أوهمها : الوهم من خطرات القلب أو مرجوع طرفى المتردد فيه) . وأوهمه : أدخل عليه الوهم ، وتوهم : ظن .

(٢٣) طرفى : طرف العين : نظرها ويطلق على الواحد وغيره لأنه مصدر الوجهة : هى كل مكان استقبلته ، وتحذف الواو فيقال جهة (مختار الصحاح) :
حماها : هذا شىء حمى أى محظور لا يقرب :
مربع : منزل القوم فى الربيع خاصة ، تقول هذه مرابعنا ومصايفنا (مختار الصحاح) :
مخيم : خيم بالمكان ، أقام به أو جعله كالخيمة ، أو ضرب به خيمته :

وَأَذْكُرُ بَيْتًا قَالَهُ بعْضُ مَنْ خَــلَا
وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ صَبْرُهُ ، فَهْوَ مُغْرَمُ (٢٤)

أُسائِل عَنْكُمْ كُلَّ غَادٍ ، وَرَائِـــحٍ
وَأُومِي إِلَىٰ أَوْطانِكُمْ ، وَأُسَلِّمُ (٢٥)

وَكَمْ يَصْبِرُ الْمُشْتَاقُ عَمَّنَ يُحِبُّـــهُ
وَفِي قَلْبِهِ نَارُ الْأَسَىٰ ، تَتَضَـــرَّمُ (٢٦)

* * *

---

(٢٤) خلا : مضى ، ضل صبره : يقال ضل عن الطريق . وضل عن القصد (أساس البلاغة)

مغرم : الغرام هو اللازم من العذاب ، والبلاء ، والحب ، والعشق وما لا يستطاع ، ومنه : رجل مغرم .

(٢٥) غاد ورائح : اسما فاعل من الغدو ، والرواح .
أومى : أشير إليه ، أومأ إليه إيماء أى أشار إليه بحاجب أو يد أو غير ذلك .
(٢٦) الأسى : الحزن . تتضرم : تلتهب ، ضرمت النار : التهبت .

الشــرح :

(١) إننى فى غاية الشوق إلى طلوع شمس النَّهار ، وظهورها ؛ لأَن تلك هى علامة تسليمى على الأَحباب ، فردوا علينا التحية .

(٢، ٧) فأَنا أسأَل الله لكم سلاماً فى كل حين ، وهذا السلام الذى أسأَله الله لكم ممتزج بالروح والريحان ، والأَفضال الجمة والنعم والوفيرة ، وأبعثه إلى أصحاب الحبيب - محمد صلى الله عليه وسلم - وإخوانه وأهله والذين اتبعوهم بإحسان ، وبذلوا نفوسهم فى محبته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أبعثه لسائر من اتبع طريقته المحمودة الخالصة من شوائب البدع والمنكرات ، فأُولئك هم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم أولى الناس بالانتساب إليه ، وبهم يهدى الله العباد ، ويحفظ الأَرض من الشرور والفساد ، كأَنهم لها الرواسى والأَوتاد ، وهم كذلك نور هذه الدنيا الساطع ولولاهم لعم الظلام بأَهلها .

(٨) وإن هؤلاء هم أصحابى فعليكم بهم ، بمحبتهم والالتذاذ بذكر سيرتهم الطيبة .

(٩) إن محبتى لهم جميعاً ، وإن سلامى إليهم جميعاً .

(١٠) ويبحث الشاعر عمن يبلغ تحياته وأشواقه ، يبحث عن محسن يقوم بهذه المهمة الجليلة .

(١١) أما أنت أيها اللائم ، تلومنى فى أمر محبتى لهم ، وولائى

وإخلاصى فالعجب منك أنت ، فأَوْلى بك أن تنظر ، وتتأمل ، لترى من منا أحق باللوم ، وأجدر بالمؤاخذة .

ولماذا تعاتبنى ، وتجادلنى فى حبى لهم ، ألديك حجة ، أو أثارة من علم ، وهل حبى هذا الذى تنكر . عار فأتبرأ منه ؟ .

(١٢،١٣) كلا ؛ بل العار كل العار فى كراهيتهم ، والبعد عنهم ، والشر كل الشر أن تلجأ إلى غيرهم بالموالاة والحب . فأى عار ، وأى ذنب !

(١٤،١٥) ويقسم الشاعر بالله - سبحانه - ، الذى أنبت قلوب العباد ، كما أنبت الزرع النضير ، وأودع فيها محبته السامية على سبيل الأمانة لا يصيبها انقطاع أو نفاد ، ويقسم به - سبحانه - الذى يسر على القلوب هذه المحبة الجليلة ، فجعلها قابلة لأن تحملها القلوب البشرية الضعيفة ، وهذا برغم جلال هذه المحبة ، وبرغم رقة قلوب المحبين . وذلك أنه - سبحانه - أخضع هذه القلوب فانقادت لسلطان محبته ، وسطوتها دون إبطاء أو انحراف .

(١٦،١٧) كما ذلّل سبحانه فى شأن هذه المحبة ، أنفساً وأخضعها لها . هذه الأنفس التى ترى الموت والهلاك أيسر لها وأشرف من الذلة والاستكانة فى أى شىء ، ولكنها تهون ، فى سبيل هذه المحبة الشريفة .

(١٨) ثم يجىء جواب هذا القسم الجليل :

إنكم أنتم أحبتنا فى كل حال، من قرب أوبعد، فى غيبة أوحضور .

(١٩،٢٠) وها هى نسمات الريح ، سلوها ، كم حملت من رسائل الشوق ! حتى لم تعد تقوى على الكتمان ، وتكاد تنشر أحاديث حبي فى كل هبوب لها :

(٢١،٢٢) وطالما شاغلت نفسى ، وواسيتها - عندما تشتد أزمة الشوق والحرقة ، ويكون الصبر قد أوشك على النفاد ، وتقطعت أسبابه - طالما شاغلتها بالمنى ، والأوهام ، ولكن هذا كله لم يجد معها شيئاً ، لأنها كانت تنخدع حقاً ، فتتخيل المنى قريبة ، فيزيد هذا من لوعتها ، وعذابها .

(٢٣) والشوق ينادينى إليكم ، فأتوجه بقلبى ، وبصرى إلى قبلتكم التى يربطنى بها أقوى الأسباب ، إنها موطن روحى ، وموئل فؤادى .

(٢٤،٢٥) وإنى لأتمثل هنا بقول الشاعر القديم عندما ضاع صبره وأدرك صعوبة الوصول ، فأقول : يكفينى أن أشير إلى أوطانكم ، ودياركم ، وأسلِّم .

(٢٩) وما أكثر ما يحاول المشتاق أن يتصبر ، فيبدو للناس صابراً ، بينما نار الحزن تشتعل فى فؤاده .

* * *

فوائـــد :

وصف ابن القيم المحبة فى كتابه القيم (مدارج السالكين) فقال :

« هى قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهى الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذى من فقده ، فهو فى بحار الظلمات ، واللذة التى من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام» . (..) تحمل أثقال المسافرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها ، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها ، وهى مطايا القوم التى مسراهم على ظهورها دائمًا للحبيب » (١) .

وقد حدثنا عن مراتب المحبة فقال :

١ - العلاقة : لتعلق القلب بالمحبوب ؛

٢ - الإرادة : وهى ميل القلب إلى محبوبه .

٣ - الصبابة : وهى انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء فى الحدور ، والصبابة ، الميل اللازم ، وانصباب القلب بكليته (٢) .

٤ - الغرام : وهو الحب اللازم القلب ، الذى لا يفارقه ،

---

(١) مدارج السالكين (٣/٦ ، ٧) .
(٢) لاحظ اهتمامه بظلال الكلمه .

بل يلازم كملازمة الغريم لغريمه ، ومنه سمى عذاب النار غراماً .

٥ - الوداد : وهو صفو المحبة ، وخالصها ، ولبها .

٦ - الشغف : أو وصول الحب إلى شغاف القلب .

٧ - العشق : وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه .

٨ - التتيم : وهو التعبد ، والتذلل ، وبينه وبين اليتم الذى

الذى هو الانفراد ، تلاقٍ فى الاشتقاق ، وتناسب فى المعنى ؛ فإن المتيم المنفرد بحبه ، وشجوه كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه . وكل منهما مكسور ، ذليل ، هذا كسرة يتم ، وهذا كسره تتيم .

٩ - التعبد : وهو فوق التتيم ، وحقيقة العبودية : الحب التام . مع الذل التام ، والخضوع للمحبوب ، تقول طريق : معبد أى ذيلته الأقدام وسهلته (١) .

١٠ - الخلة : وهى المحبة ، التى تخللت روح المحب ، وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب . (٢)

* * *

---

(١) انظر لتفصيل هذا الموضوع العظيم ، رسالة العبودية لابن تيمية .

(٢) مدارج السالكين (٣ / ٢٧ ، ٣٠) بتصرف .

مشهد الحجيج

أَمَا وَالَّذِى حجَّ الْمُحِبُّون بيْتَـــهُ
وَلَبُّوا لَهُ عِنْد المُهَلِّ ، وَأَحْرَمُوا (٢٧)

وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرُّءُوسَ تَوَاضُعــاً
لِعِزَّةِ مَن تَعْنُو الْوُجُوهُ ، وَتُسْلِمُ (٢٨)

يُهِلُّونَ بِالبيْدَاءِ : لَبَّيْك رَبَّنَــا
لَكَ الْمُلْكُ ، وَالْحَمْدُ الَّذِى أَنْتَ تَعْلَم (٢٩)

دَعَاهُمْ ، فَلَبَّوْهُ رِضًى ، وَمَحَبَّــةً
فَلَمَّا دَعوْهُ ، كَانَ أَقْربَ مِنْهُمُ (٣٠)

تَـرَاهُمْ عَلَى الْأَنْضَاءِ شُعْثًا رُءُوسهم
وَغُبْرًا ، وهُمْ فِيها أَسرُّ ، وَأَنْعَمُ (٣١)

---

(٢٧) : القصد ، واصطلاحاً : قصد مكة للنسك . الحجيج : الحجاج ، جمع حاج . لبو : أقاموا على الطاعة ، وقال فى المصباح : لبى بالحج تلبية إذا قال : لبيك ، ثنى على معنى التأكيد (لبيك اللهم لبيك (، الهل : أهل الرجل رفع صوته بذكر الله عند نعمة أو رؤية شىء يعجبه . والمهل هو مكان الإهلال .

أحرموا : نووا الدخول فى حج أو عمرة ، ومعناه أدخل نفسه فى شىء ، حرم عليه به ما كان حلالا له (المصباح ١٣٢/١)

(٢٨) تعنو : أى تخضع وتذل قال تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم (سورة طه ١١٠)

(٢٩) البيداء : الصحراء .

(٣١) الأنضاء : جمع نضو وهو الجمل المهزول ، المصباح المنير (٦١٠/٢)

شعثاً : متغيرى الشعر .

غبراً : عليهم الغبار .

وَقَدْ فَارَقُوا الْأَوْطَانَ ، وَالْأَهْـلَ رَغْبَةً
وَلَمْ يُثْنِهِم لَذَّاتهم ، والتَّنعُّمُ (٣٢)
يَسِيرُون مِنْ أقْطَارِها ، وَفِجَـاجِهَا
رِجَالاً ، ورُكْباناً ، وَلِلهِ أسْلَمُوا (٣٣)
وَلَمَّا رَأتْ أبصـارُهم بيْتَه الَّذِى
قُلوبُ الورىٰ شَوْقًا إليهِ تضَـرَّمُ (٣٤)
كَأَنَّهُمُ لَمْ يَنْصَبُـوا قطُّ قَبْلَـهُ
لِأَنَّ شَقَاهُم ، قَدْ تَرحَّلَ عَنْهُمُ (٣٥)
فَلِلهِ كَمْ مِنْ عَبْرَةٍ ، مُهْـراقة
وَأُخْرَى عَلَىٰ آثَارِهَا ، لَا تقدَّمُ (٣٦)
وَقَدْ شَرِقتْ عَينُ الْمُحِبِّ بِدَمْعِهَـا
فينظُر مِنْ بَيْنِ الدُّمُوعِ ، ويُسْجِمُ (٣٧)

---

(٣٢) لم يثنهم : لم يكفهم ، ويصرفهم عن حاجتهم (مختار الصحاح ٨٨)
(٣٣) أقطارها : جوانبها ، ونواحيها ، والمفرد قطر .
فجاجها : الفج هو الطريق الواسع بين الجبلين ، والجمع فجاج .
رجالا : أى سائرين على أرجلهم .
(٣٤) الورى : الخلق ، تضرم : تلتهب وتشتعل تحرقاً ،
(٣٥) ينصوا : يتعبوا ، شقاهم : شقاؤهم ، ترحل : ذهب عنهم وانجلى .
(٣٦) عبرة مهراقة : دمعة سائلة ، متصببة ، أصلها مراقة ، آثارها : الأثر بفتح الهمزة ، ما يؤثره كل ما شرفى الأرض (المثلث لابن السيد البطليموسى) (١/٣٣٧) دار الرشيد للنشر .
لا تقدم : لا تتقدم وحذفت إحدى التاءين .
(٣٧) شرقت : امتلأت بالدموع . يسجم : يسيل .

إذا عَايَنَتْه العينُ زالَ ظَـلامُهـا
وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الكَئِيبِ . التَّألُّمُ (٣٨)

وَلَا يعْرِفُ الطَّرْفُ الْمُعاينُ حُسْنَه
إلى أنْ يَعُود الطَّرْفُ ، والشَّوْقُ أعْظَمُ (٣٩)

وَلَا عَجبٌ مِنْ ذَا فحين أضَافهُ
إلى نَفْسِه الرَّحْمنُ ، فَهُوَ الْمُعظَّمُ (٤٠)

كَسَاه مِنَ الإجْلالِ ، أعْظَمَ حُلَّة
عَلَيْهَا طِرازٌ بِالْملاحَةِ مُعْلِمُ (٤١)

فَمِنْ أجْلِ ذَا ، كلُّ الْقُلُوبِ تُحبُّه
وَتَخْضَعُ إجْـلالاً لهُ ، وَتُعَظِّمُ (٤٢)

وَراحُوا إلى «التَّعْرِيفِ» يرْجونَ رحْمةً
ومَغْفِرَةً ممَّن يَجُـودُ ، ويُكْرِمُ (٤٣)

فَللَّهِ ذَاك الموقفُ الأَعْظمُ الَّـذِى
كموْقِفِ يَوْمِ الْعَرضِ، بَلْ ذاك أعْظَمُ (٤٤)

ويَدْنُـو بِهِ الْجَبَّـارُ جَـلَّ جَلَالُه
يُباهِى بِهِمْ أمْلَاكَهُ ، فَهْوَ أكرَمُ (٤٥)

---

(٣٩) الطرف : البصر .

(٤١) حلة : إزار ورداء . طراز : الطراز الهيئة . الملاحة : الحسن . معلم : أى جعل له علامة .

(٤٣) التعريف : الوقوف بعرفات وهو موضع وقوف الحجيج .

(٤٤) موقف يوم العرض : يوم القيامة .

(٤٥) يدنو : يقرب . يباهي : يفاخر . أملاكه : ملائكته .

يَقُولُ : عِبادى قَدْ أتوْنى مَحبَّـــةً
وإنِى بِهِمْ برٌّ ، أجُودُ ، وَأرْحمُ (٤٦)

فَأُشْهِدُكُمْ أنِّى غفرْتُ ذُنُوبَهَـــمْ
وأعْطَيْتُهمْ ما أمَّلُـــوه ، وَأُنعِمُ (٤٧)

فَبشْراكُمُ يا أهْل ذا الْمَوْقِفِ الْذى
بِهِ يغْفِرُ اللهُ الذُّنُوبَ ، ويَرْحَمُ (٤٨)

فكَمْ مِنْ عتيق فيهِ كُمِّـــل عِتْقُه
وَآخر يَسْتسْعَىٰ ، وربُّك أرْحمُ (٤٩)

ومَا رُؤِى الشَّيطانُ أغْيَظَ فِى الــــورىٰ
وَأحْقَـــرَ مِنْهُ عِنْدَها ، وَهْو ألأمُ (٥٠)

وَذَاكَ لِأَمْـــرٍ قَدْ رآه فَغــــاظهُ
فأَقْبَل يَحْثُو التُّربَ غيْظًا ، ويلْطِمُ (٥١)

---

(٤٦) بر : متفضل ، كريم ، رحيم .

(٤٧) أشهدكم : أطلعكم . أملوه : ترقبوه ، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله . قال زهير : أرجو وآمل أن تندو مودتها . ومن عزم على السفر إلى بلد بعيد يقول أملت الوصول . المصباح : ص ٣٨ .

(٤٨) بشراكم : البشرى تكون بالخير .

(٤٩) عتيق : العتق : الكرم ، وهو أيضاً الحرية ، والعتيق ، هو العبد العتق . يستسعى : يسعى ويكد .

(٥٠) الأم : اللئيم ، الدنىء الأصل ، الشحيح النفس ، والأم . أفعل تفضيل من اللؤم (الدناءة) .

(٥١) يحثو الترب : يهيل التراب على وجهه .

وَمَا عاينتْ عيناه مِنْ رحمةٍ أَتَتْ
وَمغْفِرَةٍ مِنْ عِندِ ذِى العَرْشِ ، تُقْسَمُ (٥٢)

بَنَىٰ ما بَنَى ، حَتَّى إذا ظَنَّ أَنَّهُ
تَمكَّنَ مِنْ بُنْيانِهِ ، فَهْوَ مُحْكَمُ (٥٣)

أتى اللهُ بُنيانًا له مِنْ أساسِـــهِ
فَخَرَّ عَلَيْهِ ، سَاقِطًا ، يَتَهدَّمُ (٥٤)

وَكَمْ قَدْرُ مَا يعلُو الْبِنَاءُ ، وَيَنْتَهِى
إِذَا كَانَ يَبْنِيهِ ، وَذُو الْعَرْشِ يَهْدِمُ ؟! (٥٥)

وَراحُوا إلى جَمْعٍ فَباتُوا بِمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وصلُّوا الْفجْرَ ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا (٥٦)

إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى يُرِيدُونَ رمْيها
لِوَقْتِ صَلَاةِ العِيدِ ، ثُمَّ تَيمَّمُوا (٥٧)

منازِلَهُم للنَّحْرِ ، يَبْغُـون فَضْلَـهُ
وَإِحْياءَ نُسْكٍ مِنْ أَبِيهِمْ ، يُعظِّمُ (٥٨)

فَلَوْ كَانَ يُرضى اللهَ نَحْرُ نُفُوسِهِمْ
لدَانُوا بِهِ طوْعًا ، وَلِلْأَمْرِ سَلَّمُوا (٥٩)

---

(٥٦) جمع : يقال لمزدلفة جمع إما لأن الناس يجتمعون بها وإما لأن آدم اجتمع هناك بحواء (المصباح المنير : ١٧٠) . ، مشعر الحرام : جبل بآخر مزدلفة واسمه قزح ، والميم مفتوحة على المشهور (المصباح : ٤٨١) .

(٥٧) الجمرة الكبرى : هى مجتمع الحصى بمنى ، تيمموا : قصدوا .

(٥٨) نسك : هو التطوع بقربة لله ، والمقصود بأبيهم هنا هو إبراهيم عليه السلام .

* فى الأبيات ٥٦، ٥٧، ٥٨ مايسمى بالتضمين وهو أن تصل آخر البيت بأول البيت الذى يليه (مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٨٥) .

(٥٩) نحر : ذبح . دانوا : خضعوا .

كَمَا بَذَلُوا عِنْدَ الْجِهَادِ نُحُورهمْ
لِأَعْدائِه حَتَّى جرى مِنْهُمُ الدَّمُ (٦٠)

وَلَكِنَّهم دَانوا ، بِوَضْعِ رُءوسِهِمْ
وَذَلِكَ ذُلٌّ لِلْعَبِيدِ ، وَمِيسَمُ (٦١)

وَلَمَّا تَقضَّوْا ذَلِكَ التَّفَثَ الْذِى
عَلَيْهِم ، وَأَوْفَوْا نَذْرَهُمْ ، ثُمَّ تَمَّموا (٦٢)

دَعَاهُم إلى البيتِ الْعَتيقِ زِيارةً
فَيا مَرْحَبًا بِالزَّائِرِين ، وَأَكْرِمُ! (٦٣)

فِلله مَا أَبْهَى زِيارَتَهُمْ له !
وَقدْ حُصِّلتْ تِلْكَ الجوائِزُ ، تُقْسَم (٦٤)

ولله أفْضَال هُناك ، وَنِعْمَةٌ
وبِرٌّ ، وَإِحْسانٌ ، وَجودٌ ، ومَرْحَمُ (٦٥)

---

(٦٠) نحورهم : النحر موضع القلادة من الصدر والجمع نحور (المصباح : ٩١٩)

(٦١) وضع رءوسهم : خفضها خشوعاً لله سبحانه . ميسم : اسم لأثر الوسم وهو الكى . لسان العرب (٤٨٣٨/٦) .

(٦٢) ليقضوا تفثهم : قضاء التفث هو استباحة ما حرم عليهم بالإحرام بعد التحلل : المصباح : ١٢٠ ، نذرهم : النذر : وهو ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه واجباً . لسان العرب (١٣٩٠/٦) . تمموا : قال تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » قال ابن فارس معناه ائتوا بفروضها ، المصباح : ١٢٢ :

(٦٣) البيت العتيق : القديم ، وسمى به لأنه أول بيت وضع للناس

(٦٤) أبهى : البهاء : الحسن .

(٦٥) بر : البر هو الخير والفضل . ج ود : كرم .
مرحم : الرحمة فى بنى آدم : رقة القلب وعطفه ، ورحمة الله : عطفه وإحسانه ورزقه :

وَعـادُوا إلى تَلْك المنازِل مِن مِنًى *
وَنالُوا مُناهُمْ عِنْدَها ، وَتَنَعَّمُـوا (٦٦)

أقاموا بِها يوماً ، ويوْمًا ، وثَالثًا
وَأُذِّن فِيهم بالرَّحيلِ ، وَأُعْلِمُوا (٦٧)

وراحُوا إلى رَمْى الْجِمَـارِ عَشِيَّـةً
شِعارُهُم التَّكْبِيرُ ، واللهُ مَعْهُمُ (٦٨)

فَلو أبْصَرَتْ عَيْنَاكَ مَوْقِفَهُم بِهَـا
وَقَدْ بسَطُوا تِلْكَ الأَكُفَّ ، لِيُرْحَمُوا (٦٩)

يُنادونهُ : ياربٌّ ؛ ياربُّ ، إِنَّنَـا
عَبيدُكَ ، لا ندعُو سِوَاكَ ، وَتَعْلَمُ (٧٠)

وها نحْنُ نَرْجُو مِنْكَ مَا أنْتَ أهْلُه
فَأَنْتَ الْذى تُعْطِى الجَزِيلَ ، وَتُنْعِمُ (٧١)

---

(٦٦) منى : بكسر الميم ، سميت بذلك لما يمنى فيها من الدماء أى يراق .
انظر تصحيح التنبيه للإمام النووى ص ٥٥ .
تنعموا : أى أحرموا من التنعيم عند طرف الحرم من جهة المدينة . قيل سمى بذلك لأن عن عن يمينه جبلا يقال له نعيم ، عن شماله جبلا يقال له ناعم ، والوادى نعمان السابق (٥٧ ، ٥٨) .
(٦٧) أذن فيهم : أعلموا .
(٦٩) بسطوا الأكف : مدوها منشورة .
(٧١) الجزيل : العطاء الواسع .

وَلـمَّا تَقَضَّـوْا مِنْ مِنىً كُلَّ حاجة
وَسالتْ بِهِم تلك البطاحُ ، تقدَّموا (٧٢)

إلَى الكعْبَـةِ البيتِ الحرامِ عَشِيَّةً
وَطافُوا بِهَا سَبْعًا ، وَصَلَّوْا، وسلَّمُوا (٧٣)*

* * *

(٧٢) تقضوا : بلغوا حاجتهم ونالوا ما يبتغون . ، سالت : جرت بهم ؛
البطاح : كل مكان متسع ، والأبطح بمكة هو المحصب .
(٧٣) طافوا بها : الطواف من طاف به أى ألم ، والمقصود هنا طواف الوداع ؛
* فى البيتين (٧٢ ، ٧٣) ما يسمى بالتضمين وهو أن تصل آخر البيت بأول البيت الذى يليه ، وعلماء العروض يزعمون أن هذا عيب بناء على اعتقادهم أن البيت هو وحدة القصيدة ، وخالفهم فى ذلك حازم القرطاجنى .

الشـرح :

(٢٧–٢٩) يقسم الشاعر بالله سبحانه ، الذى قصد المحبون بيته الحرام بمكة واستجابوا له ، ودخلوا فى مناسك الإحرام ، وقد كشفوا رءوسهم تواضعاً لعزة الله الذى له يخضع كل من فى السماوات والأَرض ، وهم يرفعون شعار التلبية : لبيك اللهم لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

تلبية لدعوته لهم بالرضى والمحبة ، يدعونه فيلبي الله سبحانه دعوتهم بالإجابة والتكرم ، ويكون فى تلبيتهم أسرع منهم وأقرب إليهم .

وهذه إشارة للحديث الشريف :

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : قال : إِذَا تقَرَّب العَبدُ شِبرًا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً ، تقربت منه باعاً(١) » رواه البخارى .

(٣٠) وها أنت تراهم راكبين على الجمال المهزولة ، وقد تغيرت شعورهم وتلبدت ، وتعفرت من أثر المشقة ، والجهد فى السفر

ولكن هذا كله لا يمنعهم من الشعور بالسعادة الكبرى والسرور العظيم !

---

(١) البخارى (١٤٨/٩) عن أبي هريرة رضى الله عنه ٥

(٣٢) لقد غادروا الأَوطان ، وفارقوا الأَهل ؛ رغبة فيما هو أعظم ، وما منعتهم أسباب اللذة ، وما شغلتهم أصناف النعيم ، عن اقتحام هذه المخاطر .

(٣٣) فها هم يقبلون ، ويقدمون من كل أنحاء الأَرض ، وسبلها ؛ منهم الماشى على رجليه ومنهم الراكب ، وكلهم قد أسلموا وجوههم ، وقلوبهم لله رب العالمين .

(٣٣) وعندما ظهر البيت ، وتمتعت برؤيته الأَبصار (ذلك البيت الذى تهوى إليه أفئدة الناس وتتحرق إليه شوقاً) .
لما ظهر لهم ، نسوا كل مشقة فكأَنهم ماذاقوا بؤساً قط ، لقدتولى عنهم الشقاء وانجلى ، ورحل ؛ لتحل محله السعادة العظمى .

(٣٤،٣٥) وتـأَمل دموع المحبين ، دمعة تجرى وتسيل ، وأُخرى تتبعها فى تمهل وحياء ، لقد امتلأَت عيون المحبين بالدموع ، فأَصبحت ترى البيت تماوج صورته من خلال الدمع المتدفق الشفيف .

(٣٨) إن هذا البيت ، هو نور العيون ، وهو سعادة القلب الحزين ، عاينته العين فزال ظلامها ، وطالعه الفؤاد فذهب عنه الهم وانجلت الأَحزان .

(٣٧) إن حسن البيت من ذلك الحسن المركب التجدد ، الذى يدعو إلى معاودة النظر شوقاً وحباً .

أو كما قال ابن القيم : كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْها حِين ينظرُها   حَتَّى يعودَ إِليْهَا الطَّرْفُ مُشْتاقا(١)

فعلى الطرف المعاين أن يعود إليه مرة بعد مرة ، يحدوه شوق وحنين .

(٤٠) وكيف لا ، والله – سبحانه وتعالى – قد عظمه ، وشرفه فنسبه إلى ذاته الشريفة ، وذلك عندما نقول : بيت الله وهى نسبة تشريف ، وتعظيم .

(٤١) وقد شمله الله بالتعظيم ، والإجلال ، فكأنما ألبسه ثوباً جميلا ، ظاهر الملاحة ، والحسن .

(٤٢) فإن القلوب كلها تحبه ، وتهيم به ، وتستكين إليه ، وتعظمه وتجله ، لإجلال الله له .

(٤٣) ثم يتابع رحلة المحبين فى الحج ، وقد راحوا إلى عرفات الله ، يرجون رحمته ، ومغفرته ، وإحسانه .

ويتعجب الشاعر فى انبهار بعظمة هذا الموقف ، ويراه شبيهاً بموقف آخر جليل هو موقف يوم العرض ، وإن كان موقف يوم العرض أعظم وأخطر .

ويذكر لنا وجه الربط بين موقف عرفات ، وموقف يوم العرض ، بأن فى هذا اليوم ، يباهى الله – سبحانه – ملائكته بعباده المحبين

---

(١) زاد المعاد (١/).

الذين فارقوا أوطانهم ، وغادروا ملذاتهم سعياً لله سبحانه وتلبية . وهذا دليل عظيم على كرم الله سبحانه .

وهو يشير هنا إلى الحديث الذى أخرجه أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إن الله تَطَوَّلَ(١) على أهْل عرفات ، يُباهى بهم الملائكةَ يقول : يا ملائكتى ، انظروا إلى عبادى ، شُعْثا ، غُبْرًا ، أقْبلوا يَضربون إلى من كل فجٍّ عميق ، فأُشْهدكم أنى قد أجبت دعاءهم ، وشفَّعت رغبتهم ، ووهبت مسيئهم لمحسنهم ، وأعطيت محسنهم(٢) جميع ما سألونى غير التبعات بينهم » .

قال ابن حجر : هذا السند ضعيف، ثم أورد للحديث طرقاً عدة وقال : وقد ورد ما فى الحديث فى أحاديث أُخرى نذكر ما تيسر منها: فمنها ما أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى وابن ماجة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال :

ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ، يتجلى ، ثم يباهى بهم الملائكة»(٣)

فما أعظم ما تستبشرون به يا أصحاب هذا الموقف العظيم الذى يغفر الله فيه الذنوب ، ويرحم العباد ! .

---

(١) يعنى تطلع إليهم .
(٢) مفرد فى اللفظ ، وجمع فى المعنى .
(٣) قوة الحجاج فى عموم المغفرة للحجاج للحافظ أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى .
وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (٤٩٥/٣).

وما أكثر من يمن الله عليه بالعتق من أسر الذنوب السالفة ، فيكمل عتقه وتحرره منها كأنما لم يعملها ، وكذلك من لا يزال يسعى ويكد لينال هذا الشرف العظيم ، ورحمة الله سبحانه من وراء الجميع ؛ وراء فوز الفائز ومع الساعى تأخذ بيده حتى يصل إلى مبتغاه .

ثم يصور غيظ الشيطان فى هذا الموقف حين يعلم أن الله سبحانه قد غفر للجميع ، فيتذكر بحسرة جهوده السابقة ، وقد ذهبتَ هباءً . فيغتاظ حقيرًا ، ذليلاً ، يهيل بيده على رأسه التراب ، ويلطم خده من الغيظ .

وهو يشير إلى الحديث الذى أخرجه مالك فى الموطأ ، عن طلحة ابن عبد الله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ما رؤى الشيطان يوماً هو أصغر ولا أدحر (أى أذل وأبعد) ولا أحقر ، ولا أغيظ منه ، فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام »(١) .

قال الحافظ ابن حجر : هذا مرسل وقد وصله الحاكم من حديث أبى الدرداء وقال محققا كتاب « قوة الحجاج » : هذا المرسل إسناده

---

(١) انظر الموطأ (ص ٢٧٢) باب جامع الحج . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى كتاب الشعب : وقال المحقق : هذا مرسل : وقد وصله الحاكم فى المستدرك عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

صحيح ، وقد رواه البيهقى من طريق مالك أيضاً (١) .

ويشبه حال الشيطان — فى هذا الموقف — بالبانى الذى تعب فى البناء حتى إذا ظن أنه أتم بنيانه وصار قوياً محكماً ، أخذه الله من قواعده فسقط عليه متهدما .

وهو يعلل لذلك بالحكمة الخالدة : كيف يتم بناء أراد الله تهديمه ؟! .

ويواصل رحلته مع الحجاج ، فيذكر رواحهم إلى جمع الجمار ، وبياتهم فى مزدلفة ليلة النحر ، إلى أن يصلوا الفجر ثم إتيانهم المشعر فيذكرون الله عنده ، ثم يسلكون الطريق الوسطى إلى الجمرة وهى جمرة العقبة (٢) ، وجمع هى مزدلفة : فإذا أسفروا انصرفوا إلى منى ، واكثروا من التلبية فى سيرهم ، فإذا وصلوا منى قطعوا التلبية عند جمرة العقبة ، ثم رموها .

وبعد الرمى ، ينحرون هديهم ابتغاء فضل الله سبحانه وإحياء لنسك أبيهم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

لقد نحروا مناسكهم ، ولو علموا أن فى ذبح أنفسهم مرضاة لله لفعلوا وسلموا تسليماً ، وذلك مثلما يجودون برقابهم ودمائهم الزكية فى قتالهم لأعداء الله سبحانه فى ساحات الجهاد .

---

(١) قوة الحجاج فى عموم المغفرة للحجاج للحافظ ابن حجر ، والمحققان هما : الشيخ عبد الله محمد الصديق ، والأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٢) انظر التحقيق والإيضاح للشيخ عبد العزيز بن باز .

إن خضوعهم لله عظيم ، فإن كان مظهره فى ساحة الجهاد بذل الدماء، فإن مظهره هنا خفض الرءوس مبالغة فى التعبد، والتذلل، والخشوع. وتلك علامة لمدى تذللهم له سبحانه .

فلما قضوا تفثهم : أى أزالوا وسخهم الذى أصابهم بالإحرام ، وذلك بالحلق ، والتقصير ، وإزالة الشعث وقص الشارب ، والأظافر وأووفوا نذورهم أى ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله . وطافوا بالبيت العتيق طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، الذى هو تمام التحلل ، جاءتهم دعوة الله سبحانه إلى زيارة البيت العتيق جاءتهم هذه الدعوة المباركة إلى الزيارة العظيمة وأكرم بها من زيارة(١) !

ويتعجب الشاعر من شدة حسن وجلال زيارة المحبين لبيت الله وقد فازوا بالجوائز العظيمة ، تقسم عليهم فى هذا الموقف الجليل كما يتعجب من عظمة أفضال الله ونعمه وعطاياه . . وعموم بره ، ورحمته ، وإحسانه . .

وها هم ينالون ما كانوا يتمنون ، وما كانوا يشتاقون إليه وذلك بعد عودتهم إلى منى . .

ثم يتتبع تفاصيل الرحلة من الإقامة فى منى ثلاثة ليال إلى الإعلام بالرحيل ، ثم الذهاب إلى رمى الجمار وهم يكبرون ويستشعرون معيته سبحانه .

---

(١) السابق . ص ٦٤ .

فلا تملك النفس ولا تملك العينان إلا متابعتهم – فى انبهار – وقد بسطوا أكفهم طلباً لرحمة الله ، فى نداء حثيث ، متواصل ، عامر بالخشوع ، زاخر بالرجاء فى الله سبحانه .

يارب ، نحن عبيدك الضعفاء ، وأنت الغنى ألوهاب ، المتفضل فلا ندعو ، ولا نرجو سواك ، وأنت تعلم .

ها نحن نرجو منك ، ما أنت أهله ، فإنك أنت القادر الذى يعطى ويوسع فى العطاء ، ويمنح ويجود فى فضل وسخاء .

ثم نصل مع الشاعر إلى آلام ما قبل الوداع بعد الفراغ من أعمال الحج ومناسكه التى استغرق فيها الشاعر بروحه ، ووجدانه .

ولننتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة فى رحلتنا – إلى بلاد الأشواق . بعد رحلة الحج والزيارة .

* * *

فوائـــد :

قال الإمام العلامة الدهلوى ، فى كتابه العظيم (حجة الله البالغة)

اعلم أن حقيقة الحج : اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين فى زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ومكان فيه آيات قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظمين لشعائر الله ، متضرعين ، راغبين ، وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا .

ويقول : « وربما يشتاق الإنسان إلى ربه ، أشد الشوق فيحتاج إلى شيء يقضى به شوقه (١) » .

* * *

---

(١) حجة الله البالغة للدهلوى (١/٧٥-٧٦) .

آلامُ الْوَدَاع . . .

وَلمَّا دَنَى التوديعُ مِنْهُم وأيْقَنُوا
بِأَنَّ التَّدَانِى حَبْلُه مُتصـرِّمُ (٧٤)
ولمْ يبْقَ إلَّا وَقْفَـةُ لِمُـودِّعٍ
فَللَّه أجْفَانٌ هناك تُسَـجِّمُ (٧٥)
ولله أكبادٌ هُنَالِك أودِعَ الْـ
غرامُ بِهَا ؛ فالنَّـار فِيها تضَـرَّمَ (٧٦)
ولله أنفاسٌ يَـكَادُ بِحَـرِّها
يَذُوبُ الْمُحِبُّ ، الْمُسْتَهَامُ ، الْمُتيَّمُ (٧٧!)
فَلَمْ تـرَ إلَّا باهِتَـا ، مُتَحيِّـرًا
وَآخَـرَ يُبْدِى شَجْوَهُ يَتَرنَّـمُ (٧٨)
رَحَلْتُ وَأشْـوَاقِى إلَيْكُمْ مُقِيمَـةٌ
وَنَارُ الأَسَىٰ ، مِنِّى تشِبُّ ، وَتَضْرِمُ (٧٩)

---

(٧٤) التدانى : شدة القرب ، متصرم : متقطع .
(٧٥) أجفان : جفن العين هو غطاؤها من أعلاها ، وأسفلها والجمع أجفان .
سجم : تسيل بالدمع .
(٧٦) أودع : أعطى على سبيل الأمانة فيصبح الغرام وديعة فيها .
الغرام : هو الحب اللازم ، تضرم : تشتعل أصلها تتضرم .
(٧٧) المستهام : هام يهيم : خرج على وجهه لا يدرى وجهته .
المتيم : هو المنفرد بحبه وشجوه .
(٧٨) باهتاً : مدهوشاً متحيراً ، شجوه : حزنه وهمه .
يترنم : يرجع صوته بالغناء .
(٧٩) تشب : توقد .

أودِّعُكُمْ والشوقُ يَثْنِي أعِنَّتِي
وقَلْبِيَ أمْسى فِي حِمَاكُمْ مُخَيِّمُ (٨٠)

هُنَالِكَ لَا تَثْرِيب يَوْمًا عَلَى امْرِئٍ
إذَا ما بَدا مِنْهُ الَّذِي كَان يَكْتُمْ (٨١)

فَيَاسائِقِينَ العيسَ ، بالله رَبِّكُمْ
قِفُوا لِي علَى تِلْكَ الرُّبُوعِ ، وَسَلِّمُوا (٨٢)

وَقُولوا : مُحُبٌّ قَادَهُ الشَّوْقُ نَحْوَكُمْ
قَضَى نَحْبَهُ فِيكُمْ ، تعِيشُوا ، وَتسْلمُوا (٨٣)

قَضَى اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ فِيمَا قَضَى بِهِ
بِأَنَّ الْهَوىٰ يُعْمِي الْقُلُوبَ ، وَيُبْكِمُ (٨٤)

وَحُبُّكُمُ أصْلُ الْهُدىٰ ، وَمَدَارُه
عَلَيْهِ ، وَفوزٌ لِلْمُحِبِّ ، وَمَغْنَمُ (٨٥)

---

(٨٠) يثنى أعنتى : ثنى الشيء ، عطفه وكفه وصرفه عن حاجته ، والأعنة هى ألجمة الفرس .

مخيم : مقيم ، وهى هنا مرفوعة وكان حقها أن تصبح خبراً لأسى ، ويتأول للشاعر بأن أمسى هنا فعل تام وليس ناقصاً وتعرب «مخيم» خبراً مرفوعاً لضمير محذوف.». والله أعلم.

(٨١) التثريب : الاستقصاء والمبالغة فى اللوم .

(٨٢) العيس : إبل بيض ، فى بياضها ظلمة خفيفة ، والفرد عيساء ،

الربوع : الربع هو الدار بعينها حيث كانت ، والجمع رباع وربوع .

(٨٣) قضى نحبه : مات ، والمعنى مات فى سبيلكم كى تعيشوا ، وتسلموا ، فيكم : فى سبيلكم .

(٨٤) الهوى : الحب والتعلق ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء ثم استعمل فى ميل مذموم فيقال اتبع هواه ، وهو من أهل الأهواء . (المصباح المنير (٩٩٧) ؛

يبكم : يخرس وقيل الأخرس الذى خلق ولا نطق له ، والأبكم : الذى له نطق ولا يعقل الجواب والجمع بكم (المصباح : (٩٦) .

(٨٥) مداره عليه : المحور الذى يدور حوله ، مغنم : الغنيمة ونقيضه المغرم .

وَتفْنَىٰ عِظَامُ الصبِّ بَعْدَ مَمَاتِـــه
وَأشْواقُه ، وَقْفٌ عَلَيْهِ مُحَــرَّمُ (٨٦)

فَيَا أيُّها الْقَلْب الْذِى مَلَكَ الهـــوىَ
أزِمَّتَهُ ، حَتَّى مَتَى ذا التلُّومُ ؟ ! (٨٧)

وحَتَّامَ لَا تصْحُو ؟ ! وَقد قَرُبَ المـدىٰ
ودنَّتْ كُؤوسُ السَّيْرِ ، وَالنَّاس نَوَّمُ ! (٨٨)

* * *

---

(٨٦) تفنى : تبلى .

الصب : هو من مال قلبه إلى محبوبه ، والصبابة هى انصباب القلب إلى المحبوب بحيث لا يملكه صاحبه .

(٨٧) التلوم : الانتظار ، والمكث .

(٨٨) المدى : الغاية ، ومدى البصر منتهاه وغايته .

دنت كؤوس السير : كناية عن اقتراب الرحيل .

الشرح :

(٧٤) ولما اقترب موعد الوداع والرحيل ، وتأكدوا من انقطاع حبل القرب ، وانتهاء أمده .

(٧٥) وأنه لم يبق أمامهم إلا تلك الوقفة الأخيرة للوداع ، حين ذاك سالت دموعهم ، وفاضت عبراتهم .

(٧٦) وإنى لأشفق على هذه الأكباد المقرحَة ، واستغيث الله لها فإن النار تشتعل فيها اشتعالاً ، وتستعر سعيراً .

(٧٧) كما أرثى، وأشفق،وأستغيث الله لهذه الأنفاس الحارة التى يكاد لشدة لفحها يذوب المحب كمداً ، وجوى . هذا المحب الهائم على وجهه ، تقوده قدماه إلى حيث لا يدرى وقد شغله حبه ، وتعلقه بمحبوبه عن كل ما حوله .

(٧٨) والآن لقد صار الناس قسمين ؛ مدهوشاً حائراً ، أو مسكيناً لم يستطع مغالبة شوقه ، فأعلن حزنه فى غناء عذب جميل .

(٧٩) نعم . لقد رحلتُ ، ولكنى لا أزال مقيماً معكم بأشواقى وهذه نار الحزن والأسف تستعر فى قلبى وصدرى .

(٨٠) وها أنا أحاول الفراق ، فيأبى على الشوق إلا الإقامة فى حماكم الطاهر ، الشريف .

(٨١) وهذا موقِف عصيب ، ليس لأحد أن يعيب فيه على أحد ، إذا هو أعلن مكنون فؤاده ، وأفشى سر شوقه القديم .

(٨٢،٨٣) وقفوا يا أصحاب المطايا ، على ديار الحبيب ، ولا تتعجلوا ؛ فإننى أستحلفكم بربكم أن تبلغوا أشواقى وتحياتى ، ثم لا تنسوا أن تخبروا عن حالة محب كان الشوق قائده إلى محبوبه حتى إنه ليقضى نحبه ، ويموت فى سبيل رضائه .

(٨٤،٨٥) وإذا كان الله سبحانه قد حكم بأن الهوى سبب فى عمى القلوب عن الحق ، وحبسها عن الخير ، فإن حبى وهواى من نوع أسمى ، بل إنه هو أساس الهداية ومحورها الذى حوله تدور ، إنه فوز للمحبين ، ونجاة لهم .

(٨٦) وإن العظام لتفنى وتبلى بعد ممات المحب الصادق ، ولكن أشواقه تظل باقية ، دائمة كالوقف المحترم .

(٨٧) فإلى متى أيها القلب المسكين ، يامن قهوك الهوى ، إلى متى أنت باقٍ ، وساكن ؟ وإلى متى تخلد إلى النوم ، وتركن إلى الغفلة ؟ وهذا وعد الله قد اقترب .

وهذه قافلة الحق قد آذنت بالمسير .

فهل تلحق بهم ؟ !

انتفاضـــة البعث . .

بلَى سَوْفَ تَصْحُو حِين يَنْكَشِفُ الْغطَـا
وَيَبْدُو لك(*) الأَمْرُ الذى كُنْت تكْتُمُ(٨٩)
وَيَا مُوقدًا نَارًا لِغَيْرِكَ ضَــــوءُهَا
وَحَرٌّ لَظَاهَا بيْنَ جَنْبَيْكَ يَضْرِمُ (٩٠)
أَهَذَا جَنَى العِلْمِ الَّذِى قَدْ غَرَسْتَهُ
وَهَذَا الذى قد كُنْتَ تَرْجُوه يُطْعِمُ ؟ (٩١)
وَهَذَا هو الحظُّ الَّذِى قدْ رَضِــــيتَهُ
لِنَفْسِكَ فِى الدَّارَيْنِ : جَاهٌ وَدِرْهَمُ(٩٢)
وَهَذَا هُو الرِّبْحُ الَّذِى قَدْ كَسبْتَهُ ؟
لَعَمْرُكَ لَا رِبْحٌ ، ولَا الأَصْلُ يَسْلَمُ! (٩٣)
بَخِلْتَ بِشيءِ لَا يَضُرُّكَ بَـــذْلُه
وَجُدْتَ بِشَيءِ مِثْلُهُ لا يُقَـــوَّمُ (٩٤)

---

(٨٩) ينكشف الغطا : تزول الحجب عن قلبك وسمعك وبصرك .
(٩٠) موقداً ناراً : مشعلا ناراً ، لظاها : لهيبها ، يضرم : يشتعل .
(٩١) جنى : ما يجتنى من الثمر أى يلتقط .
(٩٢) الحظ : النصيب ، الجاه : القدر والمنزلة عند الناس .
الدارين : الدنيا والآخرة .
(٩٣) لعمرك : قال فى المصباح المنير : تدخل لام القسم على المصدر عمر ، فتقول : لعمرك لأفعلن ، والمعنى : وحياتك وبقائك اه .
الأصل : المقصود هنا أصل التجارة أو رأس المال .
(٩٤) بذله : بذل الشيء أى سمح به وأعطاه ، وأباحه عن طيب نفس ،
جدت : تكرمت وبذلت .
لا يقوم : أى لا يعدله شيء فى قيمته .
(*) فى الأصل : ذلك ، وهو خطأ .

بَخِلْتَ بِذَا الحَظِّ الْخَسِيسِ دَنَـــاءةً
وجُدْت بِدَارِ الْخُلْدِ ، لوْ كُنْتَ تفْهمُ (٩٥)

وَبِعْت نعِيمًا لَا انْقِضـــاءَ لَهُ وَلَا
نَظِيرَ ، ببَخْسٍ عَنْ قلِيلٍ سَيُعْدَمُ (٩٦)

فهلَّا عَكسْتَ الْأَمْرَ إنْ كُنْت حَازِمًا
وَلٰكِنْ أضَعْتَ الْحَزْمَ ، لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ (٩٧)

وَتهْدِمُ ما تَبْنِى بِكَفِّكَ جَاهِـــداً
فأَنْت مَدَىٰ الْأَيَّامِ تَبْنِى ، وتَهْدِمُ (٩٨)

وَعِنْد مرادِ اللهِ تفْنى كمَيِّت
وَعِنْد مُرادِ النَّفْسِ ، تسْدِى ، وتُلْحِمُ (٩٩)

وَعِنْدَ خِلَافِ الأَمْــر تَحْتجُّ بِالْقضَـا
ظهيرًا عَلَى الرَّحْمٰنِ ، لِلْجَبْر تزْعُمُ (١٠٠)

---

(٩٥) الخسيس : الحقير ، دناءة : لؤم ، وخبث .
(٩٦) النظير : المثل ، المساوى ، سيعدم : سيفقد .
(٩٧) الحزم : إتقان الرأى .
(٩٨) مدى الأيام : على مدار الأيام وإلى أن تبلغ نهايتها .
(٩٩) تسدى وتلحم : السدى (وزان حصى) من الثوب خلاف اللحمة ، وهو ما يمد طولا فى النسيج ، وتسدى : أى تمد يديك نحو الشيء ، لحمة الثوب : (بالفتح) ما ينسج عرضاً (المصباح المنير) .
(١٠٠) تحتج بالقضا : انظر الشرح ص ١٨٧ .
ظهيراً : منازعاً وخصيما .

تُنزِّهُ مِنْكَ النَّفْسِ عَنْ سُوءِ فِعْلِهَا
وَتعْتِبُ أَقْدَارَ الإِلَـــه ، وَتَظْلِمُ (١٠١)

تُحِلُّ أُمورًا أَحْكَمُ الشَّـرْعُ عَقْـدَها
وتَقْصِدُ مَا قَدْ حَلَّهُ الشَّـرْعُ ، تُبْرِمُ (١٠٢)

وتَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ خِلَاف مَا
أرادَ ؛ لِأَنَّ الْقَلْب مِنْك مُعجَّمُ (١٠٣)

مُطِيعٌ لِدَاعى الغىِّ ، عَاصٍ لرُشْدِهِ
إِلَى ربِّه يَوْمًا ، يُرَدُّ ، وَيَعْلَمُ (١٠٤)

مُضِيعٌ لأَمْر اللهِ قَدْ غَشَّ نَفْسَـــهُ
مُهينٌ لها ، أنَّى يُحَبُّ ، وَيُكْرَمُ ؟ (١٠٥)

بَطىءٌ عنِ الطَّاعَاتِ أَسْرَعُ لِلْخَنَـا
مِنَ السيْلِ فِى مَجْراهُ ، لَا يَتَقَسَّمُ (١٠٦)

وَتزْعُمُ مَعْ هَذا بَأنَّك عَـــارِفٌ
كَذَبْتَ يَقِينًا فِى الَّذِى أنْتَ تَزْعُمُ (١٠٧)

---

(١٠٢) تحل : من حل العقدة بمعنى فتحها . فانحلت ،
تبرم : من أبرم الشيء أى أحكمه .
(١٠٣) معجم : أى منقوط بالسواد .
(١٠٤) الغى : الخيبة والضلال ، يسدد : يرجع .
(١٠٥) غش نفسه : لم ينصحها وزين لها غير المصلحة (المصباح ٦٨٦) .
(١٠٦) الخنا : الفحش ، ينقسم : يتشعب .
(١٠٧) مع : ساكنة العين على لغة لبنى ربيعة .
تزعم : تطلق بمعنى القول ، وعلى الظن ، وعلى الاعتقاد وأكثر ما يكون الزعم فيما يشك فيه ولا يتحقق وقال بعضهم هو كناية عن الكذب (المصباح ٣٨٧) .

وَمَا أنْت إلَّا جَاهِلٌ ، ثُمَّ ظَـالِم
وَإنَّك بيْن الْجَاهِلِينَ ، مُقَدَّمُ (١٠٨)

إذَا كَانَ هَذا نُصْـحَ عَبْدٍ لنَفْسِـه
فَمن ذَا الَّذِى مِنْه الْهُدىٰ يُتَعَلَّمُ؟!(١٠٩)

وَفِى مِثْلِ هَذا الْحَالِ قَدْ قَالَ مَـنْ مَضَى
وَأحْسَنَ فِيمَا قالهُ ، الْمُتَكَلِّـمُ(١١٠)

فَإنْ كُنْتَ لَا تَدْرى فَتلْكَ مُصِيبةٌ
وَإنْ كُنْتَ تَدْرِى ، فَالْمُصِيبةُ أعْظَمُ (١١١)

* * *

ولَوْ تُبْصِرُ الدُّنْيا وراء ستورِها
رأيْتَ خيالًا فى منام سَيُصْرمُ (١١٢)

كَحُلم بِطَيْفٍ زَار فِى النَّوم ، وانْقضى الْـ
منامُ ، وَرَاحَ الطَّيْفُ ، والصبُّ مُغْرمُ(١١٣)

---

(١٠٨) المقدم : السابق ، ومنه مقدمة الجيش أى الذين يتقدمون .

(١٠٩) نصح : النصح هو الإخلاص ، والصدق ، والمشورة والفاعل ناصح قال تعالى — على لسان نوح عايه السلام « ولا ينعكم نصحى ، إن أردت أن أنصح لكم (هود /٣٤) .

(١١١) المصيبة : الشدة النازلة ، وجمعها مصائب .

(١١٢) ستورها : الستر ، ما يستر به وجمعه ستور وهى الحجب ، يصرم : أصرم النخل أى حين قطعه ، وانصرم الليل وتصرم أى ذهب (المصباح ٥١٨)

(١١٣) طيف : الطائف ، ما أطاف بالإنسان من الجن ، والإنس ، والخيال الصب : العاشق ، المشتاق .
مغرم : الغرام هو اللازم من الحب أو العذاب ، ومنه سمى عذاب النار غراما .

وَظِلٍّ أرَتْه الشمسُ عِنْدَ طُلُوعِهَــــا
سَيُقْلَصُ فى وَقْتِ الزَّوال ، وَيُفْصَمُ (١١٤)

ومُزْنةِ صيْف طَابَ مِنْهَا مقِيلُهَـــا
فَولَّتْ سرِيعًا ، والحرُورُ تضرَّمُ (١١٥)

وَمَطْعَمِ ضَيْفٍ لَذَّ مِنْهُ مَســاغُهُ
وبَعْد قَلِيلٍ حالُه ، تِلك تُعْلَمُ ! (١١٦)

كَذَا هذِه الدُّنْيا كأَحْلامِ نَائِـــمٍ
ومِنْ بعْدِها دارُ القَضاءِ سَتُقْدِمُ (١١٧)

* * *

فجُزْها ممــرًا لا مقرًا وكُنْ بهــا
غَرِيبًا تعِشْ فِيها حَمِيدا ، وتَسْلَمُ (١١٨)

---

(١١٤) يقلص : يرتفع .
يفصم : فصم الشيء ، كسره من غير أنه يبين قال تعالى : « لا انفصام لها » .
والفعل أرته من الرؤية مسنداً إلى الشمس .
(١١٥) مزنة صيف : المزن بالضم ، السحاب أو أبيضه أو ذو الماء والقطعة مزنة .
طاب : طاب الشيء إذا كان لذيذاً أو حلالا فهو طيب .
مقيلها : القائلة هي نصف النهار ، قال : عيلا ، ومقيلا ، نام فيه .
الحرور : الريح الحارة وهي بالليل وقد تكون بالنهار (مختار ١٢٩) .
تضر : تشعل ، وتلتهب ، وشدد للمبالغة .
(١١٦) مساغة : ساغ الشراب سوغاً ، سهل مدخله القاموس (١٠٨/٣) .
(١١٧) دار القضاء : الدار الآخر لأن الله يقضى فيها بين العباد .
(١١٨) جزها : اعبرها ، وسر فيها .

أو ابْنَ سبِيلٍ قَال فى ظلِّ دوحـــة
وَراح ، وخَلّى ظلَّها ، يَتقسَّمُ (١١٩)

أخَا سفرٍ لا يسْتقرُّ قَـــــراره
إلى أنْ يَـــرَى أوْطَانَه ، وَيُســلِّمُ (١١٢)

فَيَاعجباً ! كمْ مصرعٍ وعَظَتْ بِـــهِ
بَنِيهَا ! ولكِنْ عَنْ مَصارِعِهَا عَمُوا (١٢١)

سَقَتْهُمْ كؤوس الحبِّ ، حَتَّى إذا نَشَوْا
سَقَتْهُمْ كؤوسَ السمِّ ، والقَوْمُ نَوَّمُ (١٢٢)

وأعْجبُ مَا فى العَبْدِ رُؤيـــةُ هـذهِ الْ
عظَائمِ ، والمَغْمُــورُ فِيهَا مُتيَّـــمُ (١٢٣)

وَمَا ذاك إلا أنَّ خمَرةَ حبِّهـــا
لَتَسْلُبُ عَقْلَ المَرْءِ مِنْهُ وتَصْلِمُ (١٢٤)

---

(١١٩) قال : أى نام فى نصف النهار ، قال ، يقيل قيلا ، مقيلا :
يتقسم : يتفرق ، ويتشعب .
(١٢٠) لا يستقر قراره : لا يبقى على حال ، ولا يهدأ له بال :
(١٢١) مصرع : مقتل ، بنيها : أبناءها ، عموا :
نشوا : سكروا .
(١٢٢) المغمور : المنهمك فى الباطل ، كأنه مستور فيه ، والانغمار هو الانغماس فى الماء .
متيم : منشغل بحبه وهواه :
(١٢٤) تسلب : تأخذه وتنزعه منه .
تصلم : تستأصله قطعاً .

وَأعْجَبُ مِنْ ذَا أنَّ أحْبَابَها . الأُلى
تُهِينُ ، ولِلأُعْدا ، تُـراعى ، وتُكْرِمُ (١٢٥)
وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى أنَّ قَدْرَهَـــا
جَنَاحُ بَعُوضٍ ، أو أدقُّ ، وَألأَمُ (١٢٥)
وَحَسْبُكَ مَا قال الرسُـولُ مُمَثِّـلًا
لَهَا ، ولدارِ الخُلْدِ ، والحقّ يُفْهِمُ (١٢٧)
كَمَا يُدْلِىَ الْإنسانُ فِى اليمِّ إصْبعًا
ويَنْزِعُهَا مِنْهُ ، فَمَا ذَاك يَغْنَمُ ؟!(١٢٨

---

(١٢٥) الألى : اسم موصول يختص بالعقلاء من جمعى المذكر والمؤنث تقول سرنى الألى هاجروا ، وراقتنى الألى خدمن بلادها .

والألى اسم جمع وتكتب بغير واو بعد الهمزة (النحو الوافى : ٣٤٥/١) :

(١٢٦) ألأم : أخس وأحقر ، وأدنى :

(١٢٨) يدلى : يرسلها ليستقى بها ، اليم : البحر ، ينزعها : يخرجها ؛

يغنم : يكسب ، يصب والمعنى فأى شىء يصيب إصبعه من ماء البحر ؟ :

وفى البيت اضطراب ولعله : كأن يدلى .

الشــرح :

ومهما يطول بك النوم فلا بد أن تصحو ، وتستيقظ بالرغم عنك ، وذلك حين يفجأُك الموت بالأَمر الحق فترى أهوال الآخرة عياناً ، بعد أن كنت فى غفلة عن هذا اليوم العصيب ، وذلك حين يزول عنك الحجاب ، الذى كان على قلبك ، وسمعك ، وبصرك فى الدنيا ، فتبصر بصراً قوياً ، نافذاً ترى به ما كان محجوباً عنك لزوال الحجب الموانع (١) وقد انكشف أمرك وسرك للعالمين .

وأنت يامن تسببت فى إهلاك نفسك باشعال نار ، إن استفاد بضوئها الناس جميعاً فإنك أنت وحدك الذى يذوق شرها ولهيبها ،

هل هذا هو ما تجنيه ، وتحرص عليه ، مما تغرسه من المعرفة والتعلم ؟ وهل هذا هو ما كنت تتوقعه من الربح والنفع ؟ وهل تبيع كل شىء من أجل هذا الثمن البخس ، الجاه والدرهم ؟ فأَخبر نى الآن هل كسبت شيئاً أم خسرت ؟ فلا الربح حصلت ، ولا رأس مالك أبقيت !

لقد بلغ بك سوء الاختيار أن بخلت وضننت بما لا يضرك أن تجود به ، فى الوقت الذى فرطت فيه بما لا غنى لك عنه .

بخلت بنصيب قليل حقير ، وما ذاك إلا لدناءة طبعك وقعوس همتك ، وفرطت فى الجنة ونعيمها ،

فهل فهمت الآن أى جناية جنيتها على نفسك أيها المسكين ؟

---

(١) صفوة التفاسير (١٤١٧) بتصرف يسير .

لقد بعت النعيم المقيم الذى لا ينتهى ولا ينفذ فى مقابل ثمن حقير سرعان ما يزول !

لقد كان الأَولى بل والأَجدر إذا كنت من أولى الرأى السديد أن تعكس الأَمر ، ولكنك أضعت رأْيك بحمق شديد .

فهل علمت الآن أى حسرة أنت فيها ؟ ! .

وقد هدمت وحطمت ما ظللت تبنيه فى جهد ومشقة ، وهكذا حالك تبنى وتتعب ، ثم تحطم ما بنيت ، على مر الأَيام والسنين .

أما إذا دعاك الله إلى مراده وشرعه ، فإنك متهاوت ، متقاعس ، فإذا دعتك النفس إلى شهواتها سارعت ، وصارعت ، ومددت يديك تمتد فى الأَركان طولاً وعرضاً .

فإذا وقعت فى معصية وفساد ، ذهبت إلى الاحتجاج بالقضاء جهلاً وعناد ، وتقول إن الله قد كتب على أن أفعل كذا ، وتتطاول على أمر الله وحكمته بزعمك الفاسد أنك مجْبُور على فعل هذا الشر فأَنت تبرئ نفسك الأَماره بالسوء لكى تتهم أقدار الله العليم الحكيم .

يقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمى فى وصف هؤلاء :

« هو قول الجبرية الغلاه ، الجفاة (. .) سلبوا العباد قدرته واختياره وأخرجوا عن أفعال الله تعالى وأحكامه حكمها ، ومصالحها ، ونفوا عن الله تعالى حكمته البالغة ، وجحدوا حجته الدامغة ،

ونسبوه تعالى إلى الظلم ، وطعنوا فى عدله وشرعه » (١) تعالى عما يصفون علوًا كبيرًا » .

ثم يعود الشاعر لاستكمال صفات هؤلاء الذين انكشف أمرهم يوم العرض فيقول :

لقد كنت تقطع ما يأمر الله به أن يوصل ، وتوصل ، ما يأمر الله به أن يقطع .

ولأن قلبك سقيم مريض ، فإنه لا يفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم وحديثه الشريف على حقيقته ، بل يفهم الفهم المخالف لهديه صلى الله عليه وسلم وسنته ، هوىً منك أو سوء فهم .

إنك تطيع ، وتسارع فى طاعة أهل الضلال ، ثم تعصى وتخالف نهج الرشاد والطريق الصواب المستقيم ،

أنسيت أنك راجع إلى ربك فمالقيه ؟ !

لقد ضيعت شرع الله وغششت نفسك وخدعتها ، ولم تخلص لها النصح ، ولم تصدقها المشورة ، فكيف تحظى اليوم بالحب والإكرام لها وأنت أول من أهانها .

أما عن الطاعات والحسنات ، والأعمال الصالحة ، فبطىء كسول .

وأما للفحش والمعاصى فأنت أسرع من السيل المتدفق فى مجراه لا يتشعب فى المنعطفات بل يسيل فى طريقه سريعاً عنيفاً .

---

(١) معارج القبول (٣٥٤/٢) :

وبرغم كل هذا لا تزال تزعم أنك تعرف كل شيء .

كلا . . . إنك كاذب فيما تقول وتزعم .

وإن كان هذا هو شأنك مع نفسك، وإذا كان هذا هو نصحك لها فأنى لغيرك أن يقتدى بك؟ وأنى لوعظك أن يُنتفع به؟ وأنت أول من خالفه !

وما أحسن ما قال الشاعر الحكيم فى مثل حالتك هذه :

لو كنت تفعل هذا بنفسك عن جهل وبدون قصد فإنها مصيبة وكارثة ، وأما إن كنت تدرك حقيقة ما تقوم بها من إهلاك لها ، فإن النازلة أفدح ، والكارثة أعظم .

* * *

ثم يشرع فى بيان ووصف حقيقة الدنيا فيقول :

إنك إن أبصرتها على حقيقتها ، ولم تنخدع بمظاهرها الكاذبة لرأيتها مجرد حلم ، زائل .

إنها أشبه بحلم مما يطوف بالنائم فما هى إلا لحظات وينتهى النوم ، ويذهب الخيال ، ويبقى المحب المسكين يعانى آلام الحسرة والعذاب .

وهى كذلك - أى الدنيا - تشبه الظل الذى يصاحب طلوع الشمس، تحسبه ساكناً حتى يرتفع ويزول بزوال الشمس .

وهي كذلك مثل سحابة الصيف ، لا يكاد يستطيب بظلها الإنسان

ويتطلع ويترقب خيرها وغيثها حتى تولى سريعاً بينما الريح تلتهب كالنيران .

ومثلها كذلك كمثل ما يقدم للضيف من أطايب الطعام ثم هضم الطعام ويصير حاله إلى ما تعرف من بقايا وفضلات .

وفى المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان :

« ألست تؤتى بطعامك ، وقد مَلَح ، وقَدَح ثم تشرب عليه الماء واللبن قال : بلى ، قال : فإلام يصير ، قال : إلى ما قد علمت ، قال : فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم (١) .

وكما رأيت ، فإن هذه الدنيا مثل أحلام النائمين ، وهل تبقى أحلام النائمين ؟ إنها تنقضى ، ويعقبها دار الخلود والبقاء . فاعتبر بما تقدم ، واتخذ الدنيا ممرًا للعبور ، لا مستقراً القعود » فإن الحياة معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثانى على آخرها ، ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها .

وكيفما كان ، فلا بد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة ، وهو يستحث العبور ، فهو فى غاية الحمق(٢)

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ١٩٥ دار الكتب العلمية ملح ، وقرح : ملح الطعام : ألقى فيه الملح بقدر الإصلاح وفى الحديث أن الله تعالى ضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وإن ملحه (لسان العرب (٤٢٥٤/٦) ، وقرح ، من القراح : وهو الماء الذى يشرب إثر الطعام . لسان العرب .

(٢) عدة الصابرين : ص ١٩٤ .

ثم يشير إلى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى ، فقال « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » (١) .

قال الإمام النووى : أى لا تركن إليها ، ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق الغريب ته فى غير وطنه ، الذى يريد الذهاب منه إلى أهله » (٢) .

وقال فى فتح المبدى : « عش فى الدنيا كأنك غريب ، قدم بلدًا لا مسكن فيه يأوى إليه خال عن الأهل والعيال .

ثم ترقى عن تشبيهه بذلك فقال : أو عابر سبيل ؛ لأن الغريب قد يسكن فى القرية ، ويقيم فيها بخلاف عابر السبيل ، القاصد للبلد البعيد ، بينه وبينها مفاوز مهلكة ، فإنه لا يقيم فى الطريق »(٣) .

ثم يشير الشاعر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « مالى ، والدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب ، استظل تحت شجرة ، ثم راح ، وتركها » رواه الترمذى وقال حديث صحيح (٤) .

وقال فى تحفة الأحوذى : أى ليس لى ألفة ، ومحبة مع الدنيا ، ولا للدنيا ألفة ومحبة معى حتى أرغب إليها ، وأنبسط عليها ، وأجمع

---

(١) صحيح البخارى (٨/١١٠) ؛
(٢) الأربعين النووية للإمام النووى ص ٩٠ .
(٣) فتح المبدى للشرقاوى ، (٣/٣٧٩) .
(٤) تحفة الأحوذى (٧/٤٨) .

ما فيها ولذتها ، ووجه التشبيه سرعة الرحيل ، وقلة المكث ، ومن ثم خص الراكب (١) .

ويقول الإمام ابن القيم : والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف ، ثم راح وتركها . فتأمل حسن هذا المثال ، ومطابقته للواقع سواء ؛ فإنها فى خضرتها كشجرة ، وفى سرعة انقضائها ، وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه ، والمسافر إذا رأى شجرة فى يوم صائف لا يحسنُ به أن يبنى تحتها داراً ، ولا يتخذها قراراً ، بل يستظل بها قدر الحاجة ، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق (٢) .

وهو يصف الحالة التى ينبغى أن تكون عليها ، فلابد أن تكون ملازماً للسفر ، متنقلا من مكان إلى مكان ، حتى تعود إلى أوطانك سالماً .

كما يتعجب من شأن هذه الدنيا ، ويراها أُمّاً تعظ ابناءها بمصارع الطغاة ، ومصائبهم نتيجة لشرورهم ، ولكن الأبناء فى غفلة عن هذه المواعظ .

فكأن الدنيا تسقيهم ، وتسكرهم بكؤوس الحب ، والهوى فإذا سكروا أعقبت هذه الكؤوس بكؤوس أُخرى ، وهى كؤوس الموت ، والهلاك ، بينما هم فى نومهم مستغرقون !

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عدة الصابرين ، وراجع ما قلناه فى جو القصيدة من تعلق ابن القيم بجو الرحلة والسفر .

*والاعجب أن يرى العبد كل هذه المخاطر ثم لا يفيق ، بل ينغمس فيها إلى أُذنيه ؛ وذلك بسبب سكرته ونشوته بخمرة حب الدنيا التى تسلب العقول ، وتفسد الأَفهام ، وتعمى الأَبصار التى فى القلوب .

وأعجب من ذلك أن هذه الدنيا تذل من يبالغ فى حبها ، وتكرم وتراعى من يتجنبها ، ويزهد فيها .

وهذا دليل أكيد على خسة قدرها ، وحقارة شأْنها حتى إنها لا تساوى جناح بعوضة ، وتلك إشارة إلى قوله صلى اللهعليه وسلم « لوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١) ويكفيك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد ضرب مثلاً لهذه الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة :

« والله ، ما الدنيا فى الآخرة ، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه (وأشار إلى السبابة) فى اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ ! » (٢) .

ومعنى الحديث - كما يقول الإمام النووى « ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة فى قصر مدتها ، وفناء لذاتها ، ودوام الآخرة ، ودوام لذاتها ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذى يعلق بالأَصابع إلى باقى البحر»(٣) .

ويقول الإمام ابن القيم ، وهذا أيضاً من أحسن الأَمثال فإن الدنيا منقطعة فانية ، والآخرة أبدية لا انقطاع لها ولا نسبةللمحصور إلى غير المحصور(٤) .

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث هذا حديث صحيح غريب (٣٨٣/٣) .
(٢) صحيح مسلم شرح النووى (٧١٢/٥) .
(٣) السابق . (٤) عدة الصابرين ١٩٧/٥ .

فائدة جليلة :

يقول الإمام ابن القيم

الدنيا فى الحقيقة لا تذم ، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها ، وهى قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار . ولكن لما غلبت عليها الشهوات ، والحظوظ ، والغفلة فصار هذا هو الغالب على أهلها ، وما فيها ، وهو الغالب على اسمها ، صار لها اسم الذم عند الإطلاق ، وإلا فهى مبنى الآخرة ، ومزرعتها ومنها زاد الجنة ، وما فيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ، ومحبته ، وذكره ابتغاء مرضاته ، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعوه فيها ، وكفى بها مدحاً ، وفضلاً لأَولياء الله فيها من قرة العيون ، وسرور القلوب ، وبهجة النفوس ولذة الأَرواح ، والنعيم الذى لا يشبهه نعيم بذكره ، ومعرفته ، ومحبته ، وعبادته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والأُنس به والفرح بقربه ، والتذلل له .(١)

وأذكر هنا أبيات لى فى هذا الشأَن :

ركنت إلى الدنيا فلم تك لى ركنا — أمنت إلى الدنيا ، فلم تعطنى الأَمنا
ملأَت روابيها غناء ، وفـرحة — بحب بدا منى ، لتملأَنى حزنا
صدقت لها ودى ــ وراعيت حقها — فلم ترع لى حقا ، ولم تقض لى دينا
بثثت لها سرى عساها تصونه — فأَفشته ــ عدوانا ــ وخيبت الظَّنَّا

---

(١) عدة الصابرين ص ١٤٣ .

أُمنيـــات

ألا ليْت شِعْرِى هل أبيتنَّ ليلــةً
عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا ، وَأمْرِىَ مُبْرَمُ (١٢٩)
وَهَلْ أرِدنْ مَاءَ الحياةِ ، وَأرْتَوِى
عَلَى ظمأً مِنْ حَوْضِهِ ، وَهْوَ مُفْعَمُ (١٣٠)
وَهَلْ تَبْدونْ أعلامُها بَعدما سَفَتْ
عَلَى رَبْعِهَا تِلْكَ السَّوافى فَتُعْلَمُ (١٣١)
وهَلْ أفْرِشَنْ خدِّى ثَرَى عَتبَاتِهِمْ
خُضوعاً لَهُمْ ؛ كَيْمَا يرِقُّوا ، وَيَرْحَمُوا (١٣٢)

---

(١٢٩) ألا : أداة تنبيه واستفتاح .

ليت شعرى : أسلوب تلتزم العرب فيه حذف خبر ليت باطراء ويلتزمون أن أن يذكروا اسمها ، وأن يكون هذا الاسم هو شعر مضافا إلى ياء المتكلم ثم تذكر بعده جملة مصدرة باستفهام . وأصلها : ليت شعرى حاضراً . النحو الوافى (١١/٦٣٥) .

مبرم : محكم من أبرمت العقد إبراما أى أحكمته يريد وأمرى غير مشتت وهى غير موزع .

(١٣٠) أردن : يعنى أبلغ الحوض وارتوى منه ، والنون هنا نون التوكيد المخففة .

مفعم : ملىء ومزدحم .

(١٣١) سفت : سفت الريح التراب : أذرته .

ربعها : الربع : هو الدار بعينها .

(١٣٢) ثرى : تراب .

يرقوا : رق الشيء يرق خلاف غلظ .

وَهَلْ أرْمِينَ نَفْسِي طَرِيحاً ببابِهِمْ
وَطَيْرُ مَنايا الحبِّ فوقى ، تُحَــوِّمُ (١٣٣)

فيَا أسفى تَفْنَىٰ الحياةُ ، وَتَنْقَضِي
وذا العَتْبُ باقٍ مَا يقِيم ، وعِشْتُمُ (١٣٤)

فَمَا مِنْكُمُ بُـــدٌّ ، وَلَا عنْكُمُ غِنًى
ومَا لىَ من صبْرٍ فَأَسْلُوَ عَنْكُمُ (١٣٥)

وَمَنْ شاءَ فَلْيغْضَبْ سِوَاكُم ، فَلَا أذىً
إذا كُنتم عن عبدِكمْ قد رضِيتُمُ (١٣٦)

وَعُقْبِي اصْطِبَارى فِى هواكُمُ حَميدةٌ
وَلٰكنَّها عَنْكُمْ عِقابٌ ، ومَــأْثَمُ (١٣٧)

وَمَا أنا بالشَّاكِي لِمــــا ترْتَضُونَه
وَلٰكِنَّنى أرْضَى بِهِ ، وَأُسلِّمُ (١٣٨)

وَحسْبِي انتسابِي مِنْ بعيــدِ إليكُمُ
ألا إنَّه حظٌّ ، عَظِيمٌ ، مُفَخَّمُ (١٣٩)

---

(١٣٣) طريحاً : ملقى بالأبواب ، من طرحه طرحاً أى رميت به .
المنايا : جمع منية .
تحوم : حام : الطائر حول الماء حوانا دار به وفى الحديث فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه أى من قارب المعاصى ودنا منها قرب وقوعه فيها (المصباح ٢٤٥)
(١٣٤) العتب : اللوم .
(١٣٥) بد : مفر ، اسلو : أنسى ، وأتسلى .
(١٣٦) أذى : ضرر .
(١٣٧) عقبى : عاقبة ، اصطبارى : شدة صبرى وتحملى
مأثم : وقوع فى الإثم وهو الذنب .
(١٣٩) حظ مفخم : نصيب عظيم القدر .

إذا قِيلَ هَذا عبـدُهم ومحبُّهـم
تَهلَّلَ بِشْرًا ، وَجْهُـه ، يتَبسَّمُ (١٤٠)

وها هـو قد أبْـدى الضراعةَ سائلاً
لَكُمْ بِلِسَانِ الحالِ ، والقَالُ مُعْلِمُ (١٤١)

أَحبَّتَـه ، عطفاً عَليـه فإنَّـهُ
لفِي ظمأ ، والموْرِدُ العَذْبُ أنتمُ (١٤٢)

* * *

---

(١٤٠) تهلل بشراً : تهلل الوجه من فرحه ، والبشر : الفرح وطلاقة الوجه .

(١٤١) الضراعة : الذل والخضوع والابتهال لله سبحانه .

القال : اسم من يقول والمقصود القول وهو يقابل لسان الحال .

معلم : أى دليل .

(١٤٢) المورد العذب : موضع ورود الماء السائغ ، وورود الماء أى بلغه ووافاه بلغه ووافاه من غير دخول .

الشــرح :

يتمنى الشاعر فى لوعة ولهفة أن يبيت ولو لمجرد ليلة واحدة ، يكون آمنا فيها على نفسه من شرور الدنيا وغدرها ، ثم يترقى فى أمنيته فيشتهى أن يبلغ ماء الحياء ، ولعله يقصد به هنا الوحى الذى تتم به حياة القلوب أو ماء الحياة يوم القيامة المذكور فى قوله صلى الله عليه وسلم :

حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ـ وفى الحديث : فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل »(١) .

والأقرب من هذا أن يقصد الحوض المورود الذى يقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويشتاق الشاعر إلى رؤية معالم الأوطان ـ بلاد الأشواق ـ بعد أن طمستها الرياح بالتراب تذروه .

كما يهفو إلى وضع خده على تراب أعتاب المحبوب فى مذلة ، وخضوع عسى أن ينال بذلك رحمته العظمى .

(وهذه كناية عن شدة تذلله إلى الله سبحانه ، فهذا التذلل لا يجوز إلا لله عز وجل) .

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى (٤٣١/١) .

وأخيرا نراه يريد أن يرمى بنفسه على باب الحبيب ، وأن يلقى بها عند هذا الباب حتى ولو كان الموت يحلق من فوق رأسه .

ويستدرك الشاعر بعد هذه الأُمنيات المتلاحقة ، ويلتفت إلى نفسه فى أسف وحزن ، وأسى ، إنه يرى الحياة تولى وتنصرم (تنقطع) وهو ما يزال يعانى من مرارة البعد ويقول : ليس لى من مفر . . وما أنا فى غنى عنكم ، وليس للصبر عنكم من سبيل ، فليغضب كل من يشاء أن يغضب من العالمين ، مادمتم أنتم قد رضيتم عنى ، فهل رضيتم حقاً ؟ ! .

ويبين الشاعر هنا أن هناك نوعين من الصبر ؛ صبراً محموداً وهو الصبر فى مرضاة الله سبحانه ، والإقامة على حبه وطاعته والصبر المذكور هنا هو من هذا النوع المحمود العاقبة ، أما الصبر الآخر وهو الصبر عن الله – سبحانه – بالبعد عنه ، فإن الشاعر يتبرأ منه ، وجزاؤه العقاب ، والعذاب .

يقول ابن القيم : « الصبر من آكد المنازل فى طريق المحبة وألزمها للمحبين ، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة » .

« ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى فحين امتحنهم بالمكاره ، انخلعوا عن حقيقة المحبة ، ولم يثبت منهم إلا الصابرون ، فلولا تحمل المشاق ، وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم ، وقد تبين لك أن

أعظمهم محبة ، أشدهم صبراً ؛ ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه(١)

ويتحدث الشاعر عن تمام رضائه وتسليمه لكل ما يرضى الله ، وهو يصِف لنا هذا الرضى نثراً فيقول

« فالرضى بإلهيته تعالى يتضمن الرضى . بمحبته وحده ، وخوفه ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتل إليه ، وانجذاب قوى الإرادة ، والحب كلها إليه (..) وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له » .

« وأما الرضى بدينه ، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضى ، ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها » .

« وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب ، والتفرد(٢) ، فإنه — والله — عين العزة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأُنس به ، والرضى به رباً ، وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا . بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتنسم روحه قال : اللهم زدنى اغتراباً ووحشة من العالم ، وأُنساً بك(٣) .

يقول الشاعر ، وإن ما يعيننى على هذا الصبر ،ويساعدنى على

---

(١) مدارج السالكين (١٦٢/٢) .
(٢) راجع ما قلناه عن سيطرة فكرة الغربة على الشاعر فى جو القصيدة .
(٣) مدارج السالكين .

هذا الرضى ، شرف انتسابى إلى الله عز وجل ـ ويا له من شرف عظيم ـ فعندما يقول القائل واصفاً حالى : هذا عبد الله ، وحبيبه فاض منى البشر والفرح .

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه ، وأقربهم إليه ، ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة ، بالعبودية فى أشرف* مقاماته فقال تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » (١) فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الكتاب عليه . وقال :

« وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً (٢) » فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه وقال سبحانه : « الذى أسرى بعبده ليلاً . . (٣) » فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء (٤) .

وها هو الشاعر يظهر خضوعه ويتوجه بابتهاله لله ، داعياً إياه بلسان الحال والمقال معاً أن يعطف عليه ويرحمه ، فقد طال ظمأُه ، وما من سبيل لرد هذا الظمإ القاتل إلا برحمة الله وفضله .

---

(١) سورة الفرقان الآية (١) .
(٢) سورة الجن (١٩) .
(٣) سورة الإسراء الآية (١) .
(٤) مدارج السالكين (١٠٢/١) .

سَبِيلُ النَّجَـــاة

فَيَاساهِيًا ، فِى غمْرةِ الجهْلِ والْهَوى
صَريعَ الأَمَانِى عنْ قريب ستندَمُ (١٤٣)
أفِقْ! قَدْ دَنَى الوقْتُ الَّذِى ليْسَ بَعْدَهُ
سِوى جَنَّة ، أو حرِّ نار ، تَضرَّمُ (١٤٤)
وبالسُّنَّةِ الغرَّاءِ كُنْ مُتَمسِّـــكًا
هِى العروةُ الوُثْقَى التى ليسَ تُفْصَمُ (١٤٥)
تَمسَّـك بها مسَكَ البَخيـــلِ بِمَالِه
وعَضَّ عليها بالنواجِذِ ، تِسْلَمُ (١٤٥)
ودعْ عَنْكَ مَا قَدْ أحْدثَ النَّاسُ بعْدها
فَمرْتِعُ هاتيك الحوادثِ ، أوْخَمُ (١٤٧)

---

(١٤٣) صريع الأماني : أى قتيلهما .

(١٤٤) تضرم : تشتعل بشدة .

(١٤٥) الغراء : البيضاء ، المطهرة .

العروة الوثقى : الطريقة المثلى والصراط المستقيم، وقوله تعالى : (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية ، التى لا تنفصم فهى فى نفسها محكمة ، مبرمة ، قوية ، وربطها قوى شديد « تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٤٦٠/١) طبعة الشعب

تفصم : تكسر ، وتحل .

(١٤٦) عض عليها بالنواجذ : النواجذ جمع ناجذ ، وهى الضرس الأخير ، وهى كناية عن شدة الملازمة ، والتمسك أو الصبر :

(١٤٧) مرتع : هو موضع الرتوع ، من رتعت الماشية أى رعت كيف شاءت :
أوخم : يقال للبلد وخيم إذا كان غير موافق فى السكن :

وَهِّىْ جوابًا عِنْدمَا تَسْمعُ النِّـــــدا
مِنَ اللّهِ يوُمَ العرْضِ:ماذا أجبْتُم (١٤٨)

بِهِ رُسُلِي لمَّا أتَوْكُمَ فَمَنْ يَكنْ
أجَابَ سِواهُم، سوْفَ يَخْزَى، وَينْدَمُ(١٤٩

وخذ من تقِي الرحمنِ أعظم جُنَّة
لِيوْمٍ بهِ تبْدو – عِيانًا – جهَنَّمُ (١٥٠)

ويُنْصبُ ذاك الجسْرُ مِن فَوْقِ مَتْنِهَا
فهاوٍ ، وَمَخْدوشٌ ، ونَاجٍ مُسَلَّمُ (١٥١)

وَيَأْتِي إلهُ الْعَالَمِينَ لِوعْـــــدِه
فَيفصلُ مَا بيْنَ الْعِبَادِ ، ويحْكُمُ (١٥٢)

ويأْخُذُ للمظلومِ ربُّك حقَّـــــــه
فيابؤْسَ عبد للخلائقَ يَظلِمُ ! (١٥٣)

ويُنْشَرُ ديوانُ الحِسابِ وتوضَـــعُ الْـ
موازِينُ بالقِسْطِ الذى ليس يظْلِمُ (١٥٤)

فلا مجرمٌ يخشى ظَلَامةَ ذرة
وَلَا محسنٌ من أجرِه ذاك يُهْضَمُ (١٥٥)

---

(١٤٩) يخزى : يذل ويهون .

(١٥٠) جنة : وقايه ، عياناً : أى تبدو للأعين .

(١٥١) متنها : ظهرها . ، هاو : ساقط ، مخدوش : مجروح .

(١٥٣) فيابؤس : البؤس : الضر والأسلوب هنا للتحسر أو التوبيخ .

(١٥٤) ينشر : يعرض ، القسط : العدل .

(١٥٥) ظلامة : المظلمة اسماً لما تطلبه عند الظالم

ذرة : واحدة من صغار النمل : ، يهضم : ينقص حقه :

وتَشْهدُ أعضاءُ المُسِيءِ بِما جَـــنى
كذاك علَى فِيهِ الْمُهيْمنُ يَخْتِمُ (١٥٦)

فياليت شعرى ! كَيْكَ حالُك عِندما
تَطَايَرُ كُتْبُ العالمينَ وَتُقْسمُ ؟(١٥٧)

أتأخُذْ باليُمْنى كِتَابَك ، أم تكُنْ
بِالاخْرى (*)وراء الظهْرِ منك تُسَلَّمُ(١٥٨)

وَتقْرأُ فِيه كُلَّ شيءٍ عمِلْتَــــهُ
فَيُشْرِقُ مِنْكَ الوجْهُ ، أو هو يُظْلِمُ (١٥٩)

تقُول : كِتَابى فاقْرؤوه فإِنَّــــــه
يبَشِّرُ بالفوزِ العَظِيمِ ، ويُعْلِمُ (١٦٠)

فإِنْ تكُنِ الأُخْرى فإنَّك قائــــلٌ :
ألا ليْتَنِى لَمْ أُوتَهُ فهو مُغْــرَمُ (١٦١

فَبَادرْ إِذن مَا دام فى العُمْــرِ فُسْحــةٌ
وَعدْلُك مَقْبُولٌ ، وصرْفُكَ قَيِّمُ (١٦٢

---

(١٥٦) جنى : على قومه جناية أى أذنب ذنباً يؤاخذ به

المهين : اسم من أسماء الله تعالى فى معنى المؤمن ، من آمن غيره من الخوف :

(١٥٧) تطاير : أى تطير الصحف فى الأيدى .

(١٥٨) تعدل القرطبي : إعطاء الكتاب باليمين دليل النجاة ، لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشمال من دلائل الغم .

(*) بالأخرى : تقرأ بدون همزة قطع لضرورة الوزن .

(١٦١) مغرم : من غرم فى تجارته ، خسر .

(١٦٢) فسحة : سعة . ، عدلك : العدل ، الفدية ، ما يفتدى به ، صرفك : الصرف : التوبة .

وَجِدَّ ، وَسَارِعْ ، واغتنمْ زمن الصِّبا
فَفِي زمن الإِمكانِ تَسْعَى ، وَتَغْنمُ (١٦٣)
وسِرْ مُسْرعًا ، فالسيلُ خلَفك مســــرعًا(*)
وهَيْهات مَا مِنْهُ مفرٌ ، وَمَهْـــزَمُ (١٦٤)
فهُنَّ المنـــيَا أىَّ وادِ نـــــزلْته
عَلَيْهَا القدومُ ، أو عليْكَ سَتُقْدمُ (١٦٥)

* * *

(١٦٤) مفر : مهرب .
مهزم : ملجأ .
(١٦٥) المنايا : جمع منيه وهى الموت :
(*) كذا فى الأصل والتقدير ، يسير مسرعاً ؛

الشرح :

يا أيها الناسى ، المفرط فى حق الله ، وقد غرقت فى بحار الجهل والهوى ، وذهبت ضحية للأَمانى الكاذبة التى لا تسندها الأَعمال انتبه ! لقد اقترب الوعد الحق ، وليس وراءه إلا جنة النعيم أو نار الهلاك .

وليس لك من نجاة إلا أن تعتصم بالسنة الشريفة المطهرة سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وهى العروة الوثقى ، والطريقة المثلى والصراط المستقيم .

ويشير هنا الشاعر إلى الحديث الصحيح الذى رواه أبو داود ، والترمذى عن العرباض بن سارية . قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يارسول الله كأَن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بعدى ، فسيرى اختلافًا كثيرً ، فعليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأُمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (٢) .

---

(١) التقدير ، وإن كان عبداً حبشياً بحذف كان واسمها .
(٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح (٤/١٥٠) .

وقال فى عون المعبود : وإياكم ومحدثات الأُمور : قال الحافظ ابن رجب : فيه تحذير للأُمة من اتباع الأُمور المحدثة ، المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : كل بدعة ضلالة ، والمراد بالبدعة ، ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه ، وأما ما وقع فى كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك فى البدع اللغوية ، لا الشرعية » (١)

وقد أضاف ابن القيم التشبيه بتمسك البخيل بماله فلا يفرط فيه ، ومدى حرصه عليه حتى إنه لا ينام خوفاً عليه .

ثم يعود الشاعر فينصحك بترك البدع ، ويحذرك من سوء عاقبتها

كما يوصيك بالاستعداد من الآن ، للسؤال والحساب يوم العرض الأَكبر ، يوم الحشر ، كما يوصيك بإعداد الجواب الذى ينجيك من أهوال هذا اليوم الخطير .

ويشير إلى قوله تعالى :

(ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين) (١)

قال الإمام ابن كثير ، النداء الأَول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأَل العبد فى قبره : من ربك ؟

---

(١) عون المعبود (٣٣٠/٤) دار للكتاب العربى .
(٢) سورة القصص : ٦٥ .

ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول ها ها ، لا أدرى !

ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لإن كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

ولهذا قال تعالى : فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون)(١)

ثم يرشدك الشاعر إلى ما تقى به نفسك ، وتتحصن به فى هذا اليوم العصيب ، يوم تظهر جهنم للأعين ، دون واسطة أو حجب وهل هناك ما تقى به نفسك أعظم من تقوى الله عز وجل .

ثم يصف لك أهوال يوم القيامة ، فيذكر الصراط ، ويشير إلى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه وفيه : « بضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يُجيز (٢) ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم ، سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السَّعَدان ؛ قالوا : نعم يارسول الله . قال : فإنها مثل شى السَّعدان غير أنه لا يعلم ما قَدْر عِظَمِها إلا الله . تخطف الناس بأعمالهم »(٣) .

وفى رواية : فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالطير ،

---

(١) سورة القصص الآية : ٦٦ ، ابن كثير (٦ / ٢٦٠).
(٢) بضم الياء وكسر الجيم معناه أول من يمضى على الصراط ويقطعه .
(٣) صحيح مسلم شرح النووى (١ / ٤٣٠) .

وكأجاويد الخيل والركاب ؛ فناج مسلَّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم . . (الحديث ») .

الكلاليب : جمع كلوب ، وهو حديدة معقوفة الرأس ، يعلق فيها اللحم ، وأما السعدان فهو نبت له شوكة عظيمة من كل الجوانب ، (فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوش فى نار جهنم) .

معناه : أنهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسلم فلا ينال شيء أصلا ، وقسم يخدش ، ثم يرسل ، فيخلص ، وقسم يكدس ويلقى فيسقط فى جهنم ، ومكدوس ، من تكدست الأشياء أى كانت بعضها على بعض ، ومنه تكدست الدواب فى سيرها إذا ركب بعضها على بعض (١)

ثم يشير إلى قضاء الله بين العباد فى هذا اليوم العصيب كما ورد فى تتمة الحديث السابق (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد)(٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها حتى تقاد الشاة الجلحاء ، من الشاة القرنـــاء (٣) .

قال النووى : الجلحاء هى التى لا قرن لها .

وليس من شرط الحشر والإعادة فى القيامة المجازاة والعقاب

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤٣٨/١) .
(٢) السابق .
(٣) رواه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح (تحفة الاحوذى ١٠٤/٧) .

والثواب ؛ أما القصاص من القرناء للجلحاء ، فليس من قصاص التكليف ، بل هو قصاص مقابله (١) .

ثم يشير الشاعر لقوله تعالى :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين (٢) .

قال ابن كثير : أى ونضع الموازين العدل ، ليوم القيامة والاكثر أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه (٣)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ يقول لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن الك عندنا حسنةً ، وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة ؟ . ما هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة ،

---

(١) السابق .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٤٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٣٩/٥) .

والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء (١) .

وقال فى تحفة الأَحوذى : (احضر وزنك) أى الوزن الذى لك ، أو وزن عملك ، أو وقت وزنك ، أو آله وزنك ، وهو الميزان ، ليظهر لك انتفاء الظلم ، وظهور العدل ، وتحقق الفضل .

(فقال : فإنك لا تظلم) أى لا يقع عليك الظلم .

(فطاشت السجلات) : أى خضعت .

فإن قيل : الأَعمال أعراض لا يمكن وزنها وإنما توزن الأَجسام ، أجيب بأَنه يوزن السجل الذى كتبت فيه الأَعمال ، ويختلف باختلاف الأَحوال ، أو أن الله يجسِّم الأَفعال ، والأَقوال ، فتوزن ، فتثقل الطاعات ، وتطيش (تخف) السيئات ، لثقل العبادة على النفس وخفة المعصية عليها . ولذا ورد « حفت الجنة بالمكارة ، وحفت النار بالشهوات »(٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه ليأْتى الرجل العظيم ، السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرأُوا : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً)(٣)

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب ، وقال فى تحفة الأَحوذى وأخرجه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى ، وقال الحاكم . صحيح على شرط مسلم (تحفة الأحوذى (٣٩٥/٧) .

(٢) مسلم شرح النووى (٦٨٧/٥) . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٣) سورة الكهف (١٠٥) . ، مسلم بشرح النووى : (٦٥٢/٥) .

ومعنى لا يزن عند الله جناح بعوضة : أى لا يعدل فى القدر والمنزلة أى لا قدر له (١) .

* * *

ثم يشير إلى شهادة الأعضاء فى ذلك المشهد العظيم قال تعالى : « اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال : يقول : بلى ، فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدًا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدًا لَكُنَّ وسُحقًا فعنكن كنت أناضل » (٣) .

ويذكر تطاير الكتب .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ، ومعاذير

---

(١) السابق .

(٢) سورة يس (٦٥)

(٣) القرطبى (٤٥٩٢/٩) والحديث صحيح مسلم(١٠٤/١٨، ١٠٥)المطبعةالمصرية .

وأما العرضة الثالثة فعند ذاك تطير الصحف في الأيدى ؛ فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله (١) .

قال تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا ، واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخاليه ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول : ياليتنى لم أوت كتابية ، ولم أدر ما حسابية ، ياليتها كانت القاضية » (٢) .

قال القرطبي : إعطاء الكتاب باليمين دليل النجاة ، (فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه) أى يقول : ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته ، لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشمال من دلائل الغم ومعنى (هاؤم) : تعالوا ، وقيل إنها كلمة وضعت لإجابة الداعى عند النشاط والفرح ، والأصل كتابى : فأدخلت الهاء لتبين فتحة الياء (. .)

وأما من أعطى كتابه بالشمال وهذه علامة الشقاء ، والخسران فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتنى لم أعط كتابى ، وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح ، فيتمنى عند ئذ أنه لم يعط كتاب أعماله ، ويندم أشد الندم ، (٣) .

---

(١) قال فى تحفة الأحوذى (الحديث رواه الترمذى بإسناد منطقع ، وأخرجه البيهقى فى البعث بسند حسن عن عبد الله بن مسعود موقوفاً . أ هـ .

قلت : فيكون للحديث حكم المرفوع لأنه فى الغيبيات كما تقرر فى علم الحديث .

(٢) سورة الحاقة الآيات (١٩ : ٢٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٦٧٤٨/١٠) .

وبعد أن نبهك الشاعر إلى خطورة الحساب وشدة الأمر ، بالغ فى نصحك بالمسارعة فى التزود من الأعمال الصالحة ، قبل أن يأتى يوم لا يقبل فيه عدل ، ولا شفاعة .

قال تعالى : واتقوا يومًا ، لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون (١) .

قال ابن كثير : (واتقوا يومًا) يعنى يوم القيامة (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) أى لا يغنى أحد عن أحد ، (ولا يؤخذ منها عدل : أى لا يقبل منها فداء ، (. .) كما قال تعالى « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خله ولا شفاعة » (٢) .

وفى هذا حث شديد على انتهاز فرصة القبول والتوبة (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال سبعًا ، هل تنتظرون إلا فقرًا منسياً ؛ أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسدًا ، أو هرمًا مفندا ، أو موتًا مجهزاً . أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر (٤) .

ومن خطبة لأبى بكر رضى الله عنه قال :

ثم أعلموا عباد الله أنكم تغدون ، وتروحون ، فى أجل قد غيب

---

(١) سورة البقرة الآية (٤٨) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٤) .

(٣) ابن كثير (١/١٢٦)

(٤) انظر رياض الصالحين ص ١٢ . والحديث رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال : غريب حسن (٣/٣٧٨) .

عنكم علمه ، فإن استطعتم أن لا تنقضى الآجال إلا وأنتم فى عمل لله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلى بالله . فابقوا فى مهل آجالكم ، قبل أن تنقضى ، فيردكم إلى أسوأ أعمالكم ، فإن أقوامًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم ، فَأَنهاكُمْ أن تكونوا أمثالهم .

فالوجاء الوجاء (١) ، النجاء النجاء ، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا مَرُّه ، سريع (٢) .

---

(١) الوجاء الوجاء : السرعة السرعة .

(٢) انظر وصية أبى يوسف لهارون الرشيد تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا دار الاعتصام .

بــلاد الأَشــواق

وَمَا ذاكَ إلا غَيْرةً أنْ يَنَالَهَــــا
سِوى كُفْئِهَا، والربُّ بالخلْقِ أعْلَمُ (١٦٦)

وَإنْ حُجِبتْ عَنَّا بكلِّ كَرِيهَــةٍ
وَحُفَّتْ بِمَا يُؤْذِى النُّفُوسَ، وَيُؤْلِمُ (١٦٧)

فَللَّهِ مَا فى حشْوِهَا من مَســرَّةٍ
وَأصْنَافِ لذاتٍ بها نَتَنعَّــمُ ! (١٦٨)

ولله بَرْدُ العَيْشِ بَيْنَ خيامِهَــــا
وَرَوْضاتِهَا ! والثَّغْرُ فِى الروضِ يَبْسِمُ (١٦٩

فللَّه وادِيها الذى هَو مَوْعِــدُ الْـ
مزيدِ لَوفْدِ الحبِّ، لَوْ كُنْتَ مِنْهُمُ (١٠٧)

بذيَّالك الوادى يَهِيمُ صــبابةً
مُحبٌّ يَرَى أنَّ الصَّبابةَ مَغْنَمُ (١٧١)

---

(١٦٦) غيرة : الغيور هو الذى يزجر عما يغار عليه ، وغيرته سبحانه عه جنته ، أن يحظى بها من لس أهلا لها .

(١٦٧) حجبت ، سترت بالحجب .

(١٦٨) حشوها : باطنها ، والحشو ما حشوت به الفراش .

(١٦٩) الثغر المبسم أى الفم .

(١٧٠) موعد المزيد : موعد تضعيف ثواب الأعمال وزيادة على ذلك النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه .

(١٧١) يهيم : أى يخرج على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، الصبابة : ميل القلب .

وللهِ أفراحُ المحبينِ عنـــدما
يخاطِبُهم من فوقِهم ، ويسلِّمُ (١٧٢)
وللهِ أبصارٌ تَرى اللهَ جهـــرةً
فلا الضَّيْمُ يَغْشَاهَا ، ولا هى تسأَمُ (١٧٣)
فيا نظْرةً ، أهدت إلى القلب نضْرةً
أمن بعدها يسلو المُحِبُّ المتيَّمُ (١٧٤)
وللهِ كم من خَيْرةٍ لَوْ تَبسَّمَتْ
أضاءَ لَها، نورٌ مِنَ الفجْرِ أعَظَمُ (١٧٥)
فيا لذةَ الأَبصارِ إن هى أقْبلتْ
ويا لذَةَ الأَسماعِ ، حين تَكَلَّمُ (١٧٦)
ويا خجلةَ الغُصْنِ الرطيبِ إذا انثنتْ
ويا خجْلةَ البحريْنِ ، حِين تبسَّمُ (١٧٧)
فإن كُنت ذا قلبٍ عليلٍ بحبِّهـــا
فَلَم يَبْقَ إلا وصلُها ، لكَ مرْهَمُ (١٧٨)

---

(١٧٢) يخاطبهم : الضمير عائد على لفظ الجلالة وانظر الشرح .
(١٧٣) الضيم : المشقة ، والنصب ، يغشاها : يصيبها .
المتيم : المنفرد بحبه وشجوه .
(١٧٥) خير : يقال امرأة خيره بالتشديد والتخفيف أى فاضلة فى الخلق والجمال ، وهى هنا بالتخفيف (سكون الياء) .
(١٧٧) خجلة الغضن : يعنى يامن تشبهين الغصن الملتف الجميل .
والخجل : التفاف النبات ، وحسنه (لسان العرب ٢/١١٠٦)
خجلة البحرين : المقصود بالبحرين المالح والعذب وهذا للتغليب كما تقول الشمسان وتعنى الشمس والقمر .
(١٧٨) عليل : سقيم ، ومريض ، وصلها : قربها ووداءها ولقاؤها .

ولا سيما فى لَثْمها عند ضمِّهـــا
وقد صار منها تحت جِيدك مِعْصَمُ (١٧٩)

يراهَا إذا أبدتْ له حسنَ وجْهِهـــا
يلذُّ بها قَبْل الوصالِ ، ويَنْعَـمُ (١٨٠)

تَفكَّهُ مِنْهَا العيْنُ عند اجتلائِهـــا
فَواكِهَ شَتَّى طَلْعُهَا لَيْسَ يُعدَمُ (١٨١)

عناقِدَ من كرمٍ ، وتفاحَ جنَّـــةٍ
ورمَّان أغْصَانٍ ، بها القلْبُ مُغْـرَمُ (١٨٢)

وللورْد مَا قَدْ أُلبسته خُـــدُودُهَا
وللخَمْرِ مَا قدْ ضَمَّه الرِّيقُ، والفَمُ (١٨٣)

تقسَّمَ منها الحُسْنُ فى جمْعٍ واحـدٍ
فيا عَجَبًا مِنْ واحِدٍ يتقسَّمُ (١٨٤)

تُذكِّرُ بالرَّحْمٰنِ مَنْ هَو نَاظِـــرٌ
بِجَمْلتِها ، أنَّ السُّلوَّ مُحَّـرمُ (١٨٥)

لها فِرَقٌ شَتَّى مِنَ الحُسْن أجْمِعَتْ
فينْطِقُ بالتَّسْبيحِ ، لا يتلَعْثَمُ ! (١٨٦)

---

(١٧٩) لثمها : تقبيلها ، جيدك : عنقك ، معصم : موضع السوار من الساعد .

(١٨١) تفكه : تتعجب ، وتتمتع .

اجتلاؤها : قال فى مختار الصحاح : اجتلاها بمعنى نظر إليها . وتجلى الشيء ، تكشف .

(١٨٥) السلو : طيب نفس الالف عن إلفه ، وسلوت عنه أى صبرت .

(١٨٦) لا يتلعثم : لا يتردد ، ولا يبطيء الجواب .

إذا قابلتْ جَيْشَ الهمـــومِ بوجْهِهــا
تولَّى عَلى أعْقابِه الجيْشُ ، يُهْزَم ! (١٨٧)

ولمَّا جـرى ماءُ الشبابِ بغصْنهـا
تيقَّنَ حقّاً أنَّه ليْس يَهْـرَمُ (١٨٨)*

فياخاطبَ الحسناءِ إن كنتَ رَاغبًا
فَهٰذَا زمانُ المهْـرِ ، فهْو المقـدَّم (١٨٩)

وكنْ مبغضاً للخائنات لحبِّهــا
فتحْظَى بِهَا منْ دونِهِنَّ ، وَتَنْعـمُ (١٩٠)

وكنْ أيِّمًا ، مما سـواهَا ، فإِنَّهَا
لِمثْلك فى جنَّاتِ عَدْنٍ تَأَيُّـم (١٩١)

وصُمْ يومَك الأَدْنى ، لعلَّك فى غـدٍ
تَفوز بِعيدِ الفِطْرِ ، والنَّاسُ صُوَّمُ (١٩٢)

وأقدمْ ، ولا تقنعْ بعيْشٍ مُنَغَّصٍ
فما فاز باللَّذاتِ ، مَنْ ليْس يُقْـدِمُ (١٩٣)

---

(١٨٧) تولى على اعقابه : أدبر هاربًا .

(١٨٨) ليس يهرم : لا يكبر ، ولا يضعف ، ولا يشيخ .

(*) فى الأصل : جاء هذا البيت بعد البيت (١٨٩) وغيرنا فى الترتيب ليستقيم السياق .

(١٩٠) فتحظى : الحظوة هى الحب ، ورفعة المنزلة .

(١٩١) أيماً : الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة ، سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج والمقصود هنا الصبر والابتعاد عما يعوق عن الوصول إلى الحور العين ، وليس طلب التأيم على الحقيقة .

(١٩٣) منغص : مكدر ، تنغصت العيشة : تكدرت .

يقدم : أى يتقدم ، والإقدام : الشجاعة .

وإنْ ضَاقَتِ الدُّنيا عليك بأَسْرِها
ولم يَكُ فيها مَنْزِلٌ لك يُعْلَم (١٩٤)

* * *

فحيَّ على جَنَّاتِ عدْنٍ فإنها
مَنازِلُك الأُولى ، وفيها المخيَّم (١٩٥)
ولكنَّنا سبيُ العدوِّ فهل ترى
نَعُود إلى أوْطانِنَا ، ونسَلِّمُ (١٩٦)
وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نأَى
وشَطَّت بهِ أوْطانهُ ، فهو مؤلَم (١٩٧)
وأيُّ اغترابٍ فوقَ غرْبتنا التى
لها أضحت الأَعداء فينا ، تَحَكَّم (١٩٨)
وحيَّ على روْضاتها ، وخيامِها
وحيَّ على عيْشٍ بها ، ليس يُسْأَمُ (١٩٩)
وحى على السوق الذى فيه يلتقى المحبون ، ذاك السوق للقوم يعلم * (٢٠٠)

---

(١٩٥) فحى على : حى على الصلاة : ونحوها دعاء ، وقال ابن قتيبة معناه هلم إليها (المصباح ٢٤٩) ، المخيم : الإقامة ، سبى : قوم سبى : وصف بالمصدر ومعناه أسر .

(١٩٦) نأى : بعد ، شطت : الدار أى بعدت ، مؤلم : متألم .

(١٩٨) تحكم : تتحكم وتتصرف .

(١٩٩) يسأم : يمل .

(٢٠٠) انظر الشرح .

* فى الأصل : وحى على السوق الذى يلتقى فيه المحبون ذلك . . . وهى مضطربة ، والصواب ما أثبتناه .

فما شئت خذ منه ، بـــلا ثمن له
فقد أسلف التجار فيه ، وأسلموا (٢٠١)

وحى عــلى يـــوم المـــزيد الذى به
زيارة رب العرش ، فاليومُ مُوسم (*) (٢٠٢)

وحى عــلى واد هنالك أفيـــــح
وتـربته من أذفـــر المسك أعظم (**) (٢٠٣

منابـــر من نــــور هنـــاك وفضـــة
ومن خالص العقيان ، لا تتقصم (٢٠٤)

ومن حولها كثبان مسك مقاعدٌ لمن دونهم ، هذا العطـــاء المفخم (٢٠٥)

يـــرون به الرحمن – جل جلاله – كرؤية بدر التم ، لا يتوهم (٢٠٦)

والشمس صحواً ليس من دون أُفقها سحاب ، ولا غيم هناك يغيِّم (***) (٢٠٧)

---

(٢٠١) أسلف التجار : أى أعجلوا الثمن بعد أن ضبطوا السلعة إلى أجل معلوم ، واسلموا : بنفس المعنى .

(٢٠٢) موسم : سمى بذلك لأنه معلم يجتمع إليه أهل الجنة .

(٢٠٣) افيح : فسيح ، واسع ، أذفر المسك : رائحته الطيبة ، مسك أذفر أى جيد .

(٢٠٤) خالص العقيان : الذهب الخالص (مختار الصحاح ٤٤٨) ، لا تتقصم : لا تنكسر .

(٢٠٥) كثبان المسك ، تلال المسك ، المفخم : العظيم ، لمن دونهم : يعنى لمن هم أقل منهم درجة ، ومنزلة فى الجنة .

(٢٠٦) بدر التم : بدر التمام ، صحو : بلا غيم ، والغيم : السحاب ، يغيم : يطبق بالسماء .

* فى الأصل زيارة رب العرش حين يكرموا ، والصواب الن رواية حادى الأرواح

** رواية حادى الأرراح .

*** لعل الصواب : وكالشمس .

فبَيْنا هم في عيشهم وسرورهم
وأرزاقهم تجرى عليهم ، وتقسم (٢٠٨)

إذا هم بنور ساطع قد بدا لهم
سلام عليكم : طبتم ، ونعمتم (٢٠٩)

يقول : سلونى ما اشتهيتم فكل ما
تريدون عندى ، إننى أنا أرحم (٢١١)

فقالوا جميعاً : نحن نسألك الرضى
فأنت الذى تولى الجميل ، وترحم (٢١٢)

فيعطيهم هذا ، ويشهد جمعهم
عليه ، — تعالى الله — فالله أكرم (٢١٣)

فبالله ما عذر امرىء هو مؤمن
بهذا ، ولا يسعى له ، ويقدم (٢١٤)

ولكنما التوفيق بالله إنه
يخص به من شاء — فضلاً — وينعم (٢١٥)

فيا بائعاً هذا ، يبخس معجل
كأنك لا تدرى ، بلى سوف تعلم (٢١٦)

* * *

---

(٢٠٩) ساطع : مرتفع .
(٢١٢) تولى : أى تغطى المعروف وتجزل العطاء .
(٢١٥) التوفيق : هو ألا يخلى الله سبحانه بين العبد وبين معاصيه ، وألا يتركه لنفسه طرفة عين . وعكسه : الخذلان .
(٢١٦) بخس : حقير ، معجل : سريع .

الشرح :

ولما كانت الجنة هى سلعة الله الغالية ، لم يجعلها سبحانه إلا لمن كان أهلاً لها من عباده ، وأهلاً للقائه فيها .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم

« لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن »(١) .

قال الإمام النووى : الغيرة فى حقنا الأنفة ، وأما فى حق الله تعالى قد فسرها هنا قوله (وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله)

أى غيرته : منعه ، وتحريمه (٢) .

فمقصود الإمام ابن القيم هنا أن من غيرته سبحانه على جنته النفيسة التى هى جائزته لأوليائه ، ألا يجعلها إلا لمن يستحقها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات (٣) .

قال الإمام النووى : ووقع فى البخارى . حفت ، ووقع أيضاً حجبت وكلاهما صحيح .

---

(١) والبخارى (١٤٧/٩) ومسلم بشرح النووى (٦٠٤/٥) .
(٢) مسلم شرح النووى (٦٠٤/٥)
(٣) مسلم بشرح النووى (٦٨٧/٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها .

قال العلماء : هذا من بديع الكلام ، وفصيحه ، وجوامعه التى أُوتيها صلى الله عليه وسلم من التمثيل الحسن .

ومعناه : لا يوصل الجنة إلا ارتكاب المكاره ، ولا يدخل النار إلا ارتكاب الشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هتك الحجاب ، وصل إلى المحجوب .

وعن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لما خلق الله الجنة ، والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها ، وإلى ما أَعددت لأَهلها فيها ، قال : فجاءها ، فنظر إليها ، وإلى ما أعد الله لأَهلها فيها ، قال فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأَمر بها ، فحفت بالمكاره ، فقال ارجع إليها فانظر إليها ، وإلى ما أعددت لأَهلها فيها قال : فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره ، فرجع إليه ، فقال وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد . . الحديث (١)

ويقول الشاعر متعجباً من عظمة النعيم فى الجنة :

إن أنواع الملذات ، ودواعى السرور فى الجنة كثيرة وعظيمة بل هى ممزوجة بها فى باطنها كما فى ظاهرها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الجنة وبنائها :

« لبنة(٢) من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها(٣) المسك (٤)

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح تحفة الأحوذى (٧/٢٨٠) .

(٢) لبنة : ما يبنى بها ، (٣) ملاطها : ما بين اللبنتين ، (٤) المسك الأذفر : الجيده

الأذفر وحصباؤها (١) اللؤلؤ ، والياقوت ، وتربتها الزعفران (٢) ، من يدخلها ينعم ، لا يبْأَس ، ويخلدُ لا يموت ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم . (٣)

قال القاضي : ومعناه : أن الجنة دار الثبات ، والقرار ، وأن التغيير لا يتطرق إليها ، فلا يشوب نعيمها بؤس ، ولا يعتريه فساد (٤) .

ويتعجب الشاعر من عظمة السعادة والسرور وطيب العيش فى الجنة ، والإقامة فى خيامها والسير فى روضاتها عندما يتلألأ الوجه ابتساماً فى هذه الرياض العذبة .

وفى وصف خيام الجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن فى الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً وفى كل زاوية منها أهل ، لا يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » (٥) .

وفى ذكر رياضها قال تعالى : فأَما الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون» (٦) أى فهم فى رياض الجنة ، يسيرون

---

(١) حصباؤها : أى أن الحصى فيها من اللؤلؤ والياقوت .
(٢) تربتها الزعفران : أى مكان تربتها الزعفران الطيب الرائحة .
(٣) رواه أحمد والدارمى والطبرانى فى الأوسط وابن حبان فى صحيحه انظر تحفة الأحوذى (٢٢٩/٧)
(٤) السابق .
(٥) مسلم بشرح النووى (٦٥٦/٥)
(٦) سورة الروم / ١٥)

وينعمون ، وقال تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير »(١)

أى : والمؤمنون الصالحون فى رياض الجنة يتمتعون فى أطيب بقاعها وفى أعلى منازلها ، (لهم ما يشاءون عند ربهم) أى لهم فى الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم(٢) ثم يشير إلى يوم المزيد ، وقد توسع الشاعر فى الكلام عنه فى كتابه القيم حادى الأرواح (٣)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أتانى جبريل وفى كفه كالمرآة البيضاء يحملها ، فيها — كالنكتة السوداء فقلت : ما هذه التى فى يدك يا جبريل ، قال : هذه الجمعة قلت : وما الجمعة ، قال : لكم فيها خير كثير ، قلت : وما يكون لنا فيها ؟ قال : يكون عيدًا لك ، ولقومك من بعدك ، ويكون اليهود ، والنصارى تبعاً لك(٤) قلت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئاً هو له قسم ، إلا أعطاه إياه ، أو ليس بقسم إلا ذخر له فى آخرته ما هو أعظم منه ، قلت : ما هذه النكمة التى فيها ؟ قال : هى الساعة ، ونحن ندعوه يوم المزيد . قلت : وما ذاك يا جبريل ؟ قال : إن ربك اتخذ فى الجنة وادياً فيه كثبان من مسك أبيض فإذا كان يوم

---

(١) سورة الشورى : ٢٢ .
(٢) صفوة التفاسير (١٣١١) .
(٣) ص ١٨٤ .
(٤) أى لأنهم اتخذوا السبت والأحد وهما بعد الجمعة .

الجمعة هبط من عليين على كرسيه ، فيحف الكرسى بكراسى من نور ، فيجىء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسى ، ويحف الكراسى بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجواهر ، ثم يجىء الصديقون ، والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر،ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان .

ثم يتجلى لهم - عز وجل - فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى فسلونى ، فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم » - الحديث (١) .

ويتخيل الشاعر - أو يحاول أن يجعلنا نتخيل - ذلك الوادى الفسيح يسير فيه المحبون هائمين يؤدون حق الغرام والحب والصبابة حيث يكون الغرام ، والحبُّ ، والصبابة كسباً ، وغنيمة ، وفوزًا عظيماً .

وما أشد وأعظم أفراح ومسرات المحبين ، عندما يتكرم المولى سبحانه عليهم ، بالتحية والخطاب .

ثم يصل الشاعر إلى الحديث عن النعمة الكبرى ، واللذة العظمى والزيادة التى ليس وراءها زيادة .

« وهى الغاية التى شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ،

---

(١) قال ابن القيم : هذا حديث كبير ، عظيم الشأن ، رواه أئمة السنة ، وتلقوه بالقبول ، وجمل به الشافعى مسنده (حادى الأرواح : ٢١٩) .

وتسابق إليها المتسابقون ، ولمثلها فليعمل العاملون ، إذا نالها أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم(١) .

عن مهيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

إذا دخل أهل الجنة ، الجنة يقول الله . تبارك وتعالى :

تريدون شيئاً أزيدكم ، فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة ، وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم - عز وجل - ثم تلا قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »(٢)

وقال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة »(٣) : أى : تنظر إلى جلال ربها ، وتهيم فى جماله ، فأعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى - جل جلاله - والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب » .

قال الحسن البصرى : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضر وهى تنظر إلى الخالق(٤) وقال تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، لا يرهق وجوههم قتر ، ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »(٥) . قال ابن كثير : الزيادة : هى تضعيف ثواب الأعمال

---

(١) حادى الأرواح : ١٩٦ :
(٢) سورة يونس : ٢٦ :
(٣) سورة القيامة (٢٢ ، ٢٣) :
(٤) صفوة التفاسير (١٦٥١)
(٥) سورة يونس : ٢٦ .

بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور ، والحور ، والرضا عنهم ، وما أخفاه من قرة أعين ، وأفضل من ذلك ، وأعلاه : النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ناساً قالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال فإنكم ترونه كذلك(٢) .

قال النووى : أى : هل تضارّون غيركم فى حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة فى الرؤية أو غيرها لخفائه ، كما تفعلون أول ليلة من الشهر ، ومعنى المخفف : هل يلحقكم فى رؤيته ضمير وهو الضرر ، وفى رواية (تضامون) أى هل يلحقكم مشقة ونصب

وقوله صلى الله عليه وسلم (فأَيكم ترونه كذلك) معناه تشبيه الرؤية بالرؤية فى الوضوح ، وزوال الشك ، والمشقة ، والأَخلاق(٣) . وأقرب لعبارة ابن القيم فى القصيدة ، حديث جرير بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أهل الجنة فى نعيمهم ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (١٩٨/٤)

(٢) صحيح مسلم (٤٢٨/١)

(٣) مسلم بشرح النووى (٤٢٨/١) وهذه فائدة عظيمة لأن الله تعالى ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم، فإذا الرب تعالى قد اطلع عليهم فوقهم فقال : « السلام عليكم يا أهل الجنة » فذلك قوله : « سلام قولاً من رب رحيم »(١) فينظر إليهم ، وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره ، وبركاته عليهم ، فى ديارهم قال القرطبي : ومعناه ثابت فى صحيح مسلم (٢) .

ثم يتحدث الشاعر عن الحور العين .

قال تعالى : « فيهن خيرات حسان » (٣) .

خيرات : جمع خيْرة ، وهى المرأة الصالحة ، الحسنة الخلق ، الحسنة الوجه ، قاله الجمهور(٤) . وقال فى حادى الأرواح : عن عبد الله بن مسعود قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمه ، ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليها فى كل يوم ، من كل باب تحفة ، وهدية وكرامة ، لم تكن قبل ذلك ، لاترحات(٥) ، ولا ذفرات ، ولا نجرات ، ولا طماحات . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يسطع نور فى الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت فى وجه زوجها (٦) .

---

(١) سورة يس : ٥٨ .
(٢) تفسير القرطبي : (٥٤٨٩/٩) وانظر روايته وإسنادها فى حادى الأرواح ٢٢٣.
(٣) سورة الرحمن (٧٠).
(٤) ابن كثير (٤٨٢/٧) .
(٥) ترحات : من الترح وهو الحزن ، طماحات : المرأة الطماحة التى تكرر بنظرها يميناً وشمالا إلى غير زوجها ، ذفرات ، نجرات : متغيرات الرائحة
(٦) حادى الأرواح ١٦٢ .

وقد خصص الإمام ابن القيم باباً فى ذكر سماع الجنة ، وغناء الحور العين ، وما فيه من الطرب واللذة . صدَّره بقوله تعالى : « فهم فى روضة يحبرون » وقال : الحبرة : اللذة والسماع(١) .

وعن ابن عمر رضى الله عنه . عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها قط ، [إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن بقُرَّة أعيان . وإن مما يغنين به ، نحن الخالدات فلا يمتنه ، نحن الآمنات فلا تخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه (١) .

والشاعر يتعجب من حسن قدها الذى يشبه الغصن الرطيب الملتف الجميل ، وأما حين تبتسم فإنها تذكر بثراء البحرين وتدفقهما بالخير والجمال (ولعله يعنى وصف الخديْن) .

فإذا كان قلبك قد أحس تباريح الشوق إليها ، وعانى آلام التعلق بها ؛ فليس ثمَّ إلا علاج واحد ، وهو القرب منها فى جنات النعيم . ويلح الشاعر على شدة التشويق إليها بذكر لذة الوصال فى تقبيلها ، والتنعم بحسنها ، وجمالها .

وقد خصص باباً — فى كتاب حادى الأَرواح — « فى ذكر نكاح أهل الجنة ، ووطئهم ، والتذاذهم بذلك أكمل لذة ، ونزاهة ذلك عن المذى ، والمنى ، والضعف ، وأنه لا يوجب غسلا » .

---

(١) حادى الأرواح (١٧٣ — ١٧٧) .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وإسناده صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى .

وأورد فى هذا الباب الكثير من الأَحاديث نذكر منها حديث لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله علام يطلع من الجنة ، قال : أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من كأَس ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك مما تعلمون ، وخير ، وأزواج مطهرة ، قلت : يا رسول الله : أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال : الصالحات للصالحين ، تلذذوا بهن مثل لذاتكم فى الدنيا ، وتلذذكم غير ألا توالد .

وعن عكرمة ، فى تفسير قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة فى شغل فاكهون »(١) قال : شغلهم افتضاض العذارى (٢) .

وقد بلغ جمال وجهها حدًا يبعث معه فى النفس لذة ونعيماً حتى من قبل الوصال والقرب .

وإن العين لتطالع عند ظهورها ، والتأَمل فيها أنواعاً من المسرات وكأَنها الفواكه الدائمة الشهية ، التى لا تنتهى ولا تنقطع ، ثم يعدد — فى لذة — هذه الفواكه المشتهاة ، التى يحكيها حسن وجهها من عناقيد العنب ، وتفاح الجنة ، والرمان ، وأشياء أُخرى لا يزال الفؤاد يعانى من شدة الشوق إليها ، فخدودها جميلة حمراء ناضرة كأَنها الورد ، وريقها عذب رائق كأَنه الخمر وحسنها متعدد ساحر ، إنه متعدد نعم ولكن فى تناسق ونظام ، فجمع بهذا بين التعدد ،

---

(١) سورة (يس : ٥٥) :
(٢) حادى الأرواح (١٦٤) .

والتنوع ، وبين التناسق والتناغم ، وما أعجب أن يتعدد الشيء ويجتمع فى آن ! والناظر إليها يوقن أنه لا مجال للصبر عنها بعد ذلك ، أو التلهى عنها بسواها ، وذلك بعد أن يذوق ، ويرى من حسنها ما يفوق الوصف ، ويسمو على الخيال .

وأن لها أنواعاً متعددة من الحسن تذكر من يراها بقدرة الله البارىء فلا يملك نفسه من التسبيح .

وبإقبالها تقبل السعادة ، وتفر جيوش الهموم ، والأَحزان ناكصة على أعقابها ، فى خزى وانهزام .

ثم ينادى الراغب فى هذا الحسن والنعيم ، ويشوقه ، ويحثه مبيناً له سبيل التقدم ، بدفع المهر .

ولا يزال يشوقه بوصف جمالها ، حيث ينبض قدها ، بالشباب والحياة والخصومة ، إنه شباب باقٍ دائم لا يفنى .

* * *

وهو يحذره من الخائنات ، قائلا له : وابغضهن لتحظى ، وتظفر ، بحسناء الجنة ، وتأَمن شرور هاتيك الخائنات .

إن هذه الحسناء ، تنتظرك فى الجنة ، وتتهيأً لك ، وتستعد لاستقبالك ، فكن لها بقلبك . كما هى لك ، أعد مهرها ، وتقدم إليها وكن بمنزلة الأَيم العذب ، مصطبراً فى انتظار الزواج منها ، وابتع عن كل ما يعوقك فى طريق الوصول إليها .

وإنما قلت — بمنزل الأَيم — لأَنه لا يدعو إلى التأَيم والرهبنة على الحقيقة ، وإنما أن يكون الرجل متزوجا ولكن أعماله وأشواقه وتعلقه بالحور العين فى الجنة ، كأَعمال وأشواق وتعلق العزب الذى لم يتزوج بعد فهو فى غاية الشوق ، واللهفة .

وكن كذلك ، فى انتظارها بمنزلة الصائم ، الذى يصبر ، ويحبس نفسه عما يشتهى فترة قليلة يعقبها الفوز بالجائزة العظيمة ، فى عيد الفطر ، فإنك بصومك هذا القليل سوف تحظى بعيد فطر آخر ، وذلك فى الجنة فتنعم بينما سواك ممن استعجلوا حظوظهم فى الدنيا واستعجلوا الفطر ، يعانون من صيام ومشقة وعذاب ، وفى هذا يقول الإمام أحمد رحمه الله . ألا رجل يصبر ساعة ! .

اللّهم اجعلنا من الصابرين الذين يفوزون هذا الفوز العظيم .

ثم يعود إلى النصح والإرشاد قائلا :

فسارع ، وتقدم ، ولا تقنع ، وترضى بهذا العيش الممزوج بالأَكدار ، فليس جديرا بحصول المقامات العالية ، إلا الشجاع المقدام ، الجسور ، الذى لا يبالى بالعقبات ، والمخاطر فى سبيل الوصول . فإذا شعرت ، وأدركت أن الدنيا قد ضاقت عليك بما رحبت ، وأن أشواقك أعلى وأسمى من حدودها الضيقة ، وأحسست بحقيقة اغترابك فيها ، فعليك بجنات عدن التى عاش فيها أبوك من قبل فى أيامه الأُولى سعيدًا ، منعماً حتى جاءه عدوه الشيطان فأَخرجه منها ، فأَصبح هو وأبناؤه — وأنت منهم — بمنزلة الأَسرى

فلا سعادة لك فى هذا الأَسر الذليل بل هو البلاء والشقاء المخيم على الرؤوس ، والقلوب .

إنهم يقولون : إن الغريب لا يهدأ له بال ، ولا يستقر له قرار إذا نزح عن بلاده وطرد منها . فهل هناك اغتراب أشد من غربتنا هذه بين أعداء يتصرفون فى أُمور معيشتنا وخصائص شؤوننا كيف شاءُوا .

فهلم إلى بلاد الأَشواق ، فتنعم فى رياضها ، وبين خيامها حيث النعيم المقيم ، المتجدد الذى لا يُمل ولا ينفد ، قال تعالى : « وبشر الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، أن لهم جنات تجرى من تحتها ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون. (١)

أى : وبشر المؤمنين المتقين الذين كانوا فى الدنيا محسنين ، بأَن لهم حدائق وبساتين ، ذات أشجار ، ومساكن تجرى من تحت قصورها ، أنهار الجنة ، وكلما أُعطوا عطاءً ، ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، أى هذا مثل الطعام الذى م إلينا قبل هذه المرة .

قال المفسرون : إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها ، تأْتيهم به الملائكة ، فإذا قدم لهم مرة ثانية قالوا : هذا الذى أتيتمونا به من

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .

قبل ، فتقول الملائكة : كل يا عبد الله ، فاللون واحد ، والطعم مختلف» (١)

ويشير إلى سوق الجنة :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى الجنة لسوقاً ، يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثو فى وجوههم ، وثيابهم ، فيزدادون حسناً ، وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم ، وقد ازدادوا حسناً ، وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً ، وجمالاً (٢) .

وقال الإمام النووى : المراد بالسوق : مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس فى الدنيا فى السوق ، ومعنى يأتونها كل جمعة أى فى مقدار كل جمعة من أسبوع ، فخذ مما تبتغى من هذا السوق بلا دفع ثمن ، لأنك قد دفعت الثمن مقدماً ، وهذا أوان الاستلام .

ثم يعود فيذكر يوم المزيد ، ولكن فى سياق جديد ، هو سياق التشويق ، والحث على النجاة ، من ضيق الدنيا إلى سعة الجنات ، وما فيها من مشاهد النعيم .

عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن

---

(١) صفوة التفاسير (٤٣/١) قلت : فيجمعون بذلك بين لذة الطعام ، وروعة المفاجأة !

(٢) مسلم بشرح النووى (٦٩٢/٥) .

الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول ، هل رضيتم ، فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك : فيقولون : يارب ، وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبدًا » (١) .

قال فى دليل الفالحين : لبيك ربنا وسعديك : أى إجابة بعد إجابة للتكثير ، والتعدد ، وقال الطيبى : الحديث مأخوذ من قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين ، والمؤمنات ، جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ومساكن طيبة ، فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر (٢) .

وقال الحافظ :

فيه تلميح بقوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر » . لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة .

وكل من علم أن سيده راضٍ عنه . كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما فى ذلك من التعظيم والتكريم(٣) .

وللحديث روايات أخرى أقرب إلى صياغة الشاعر أوردها فى كتابه حادى الأرواح (صفحة ٢٢٠) .

---

(١) صحيح مسلم (٦٩٠/٥) ، تحفة الأحوذى (٢٧١/٧)
(٢) سورة التوبة : ٧٢ .
(٣) تحفة الأحوذى ٢٧١/٧ .

والآن أى عذر لمن يصدق ويوقن بكل ما تقدم ثم لا يسارع ويجاهر ويتقدم ! .

حقاً إن التوفيق والعصمة من عند الله سبحانه يتفضل بهما على من يشاء من عباده الصالحين .

فيا أيها الخاسر المغبون :

تبيع وتفرط فى سلعة الله الغالية مقابل أن تحصل على السلعة الدنيا الحقيرة .

ألا تدرى ما تجلبه على نفسك من خسران ؟ .

ألا تشعر بسوء ما تفعل ؟ .

أم تتجاهل وتتعامى ؟ !

وعلى كلٍّ . فسوف تدرى فيما بعد . .

وسوف تعلم تمام العلم .

نهايـة المطـاف

فقدِّم – فدتك النفس – نفسك ، إنَّها
هى الثمن المبذول حين تسلم(٢١٧)

وخض غمرات الموت وارق معا رج الْـ
مَحَبَّـةِ فى روضـاتهم ، تَتَنسَّم(٢١٨)

وسلم لهم ما عاقدوك عليـــه إن
تُردْ مِنْهم أن يبذلوا ، ويسلموا (٢١٩)

فما ظفرت بالوصل نفس مهينَةٌ
ولا فـاز عبد بالبطـالة ينعـم (٢٢٠)

* * *

وان تك قد عاقتك « سعدى » فقلبك الْـ
مُعَـنَّى رهـين فى يديها مسلم (٢٢١)

وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى لها منك ، والواشى بها يتنعم (٢٢٢)
فَدَعْها ، وسَلّ النَّفسَ عَنْهَا بِجَنَّـةٍ مِنَ العِلْمِ ، فِى رَوضاتِهَا الحقُّ يَبْسِمَ(٢٢٣)

---

(٢١٨) خض : اقتحم ، غمرات الموت : شدائده :
معارج المحبة : المعراج : السلم ، ومنه ليلة المعراج ، والمقصود هنا درجات المحبة ومقاماتها . ، تتسنم : تعلو ، وترتفع .

(٢١٩) مما قدوك : عاهدوك عليه .

(٢٢٠) ظفرت : فازت ، الوصل : القرب ، مهينة : ذليلة :
البطالة : الجهالة واللهو (لسان العرب (٣٠٢/١) ، ينعم : يتمتع

(٢٢٣) سل النفس : صبرها .

وَقَدَ ذُلِّلتْ فِيهَا القُطُوفُ فَمنْ يُرِدْ   جَناهَا ينَلْهُ ،كَيْفَ شَاءَ ويَطْعَمُ(٢٢٤)
وَقَد فُتَحَتْ أبْوَابُهَا ، وَتَزَيَّنَتْ   لخطَّابِهَا،فَالحُسْنُ فِيها مُقَسَّمُ(٢٢٥)
وقد طاب منها نُزْلُها ، ونَزِيلُها   فَطَوبَى لِمنْحلُّوا بِهَا وتَنعمُوا(٢٢٦)
أقام علىَ أبَوابِهَا دَاعِيَ الْهدىَ   هَلْمُّوا إلى دَارِ السَّعادَةِ تَغْنَمُوا (٢٢٧)
وَقَدْ غَرَس الرَّحمٰنُ فِيهَا غِراسَهُ   مِن النَّاسِ ،والرَّحمنُ بِالْخلقِ أعْلمُ(٢٢٨)
وَمَنْ يغْرِسِ الرَّحمنُ فِيها فإِنَّهُ   سعِيدٌ ، وإلاَّ فَالشَّقَاءُ مُحَتَّمُ (٢٢٩)

* * *

والآن وقد شارفت الرحلة على الانتهاء . وآن للشاعر أن يتركنا لنبدأ الرحلة من جديد. وقد عرفنا معالمها . وما تطلبه الرحلة من مطالب وآن لنا أن نبدأ السير بأقدامنا بعد أن طوفنا مع الشاعر بخيالنا وأحلامنا ؛ فإن الشاعر لا يتركنا قبل أن يودعنا وأن يقدم لنا النصيحة الأخيرة ، فى نهاية المطاف .

---

(٢٢٤) ذللت قطوفها : أى سويت عناقيدها ، ودليت (مختار الصحاح)
جناها : حصادها .
(٢٢٥) مقسم : موزع كل خسب نصيبه .
(٢٢٦) طاب : جهز واستوى ، نزلها : ما يقدم للضيف فيها ، نزيلها : ضيفها ، طوبى : اسم شجرة فى الجنة ، ويقال طوبى لك وطوباك وعاءمن الطيب (مختار الصحاح) ، حلوا : أقاموا .
(٢٢٧) هلموا : أقبلوا .
(٢٢٨) غرس : هو غرس الشجر ، غراسه : الغراس هو فسيل النخل ل.
(٢٢٩) محتم : لازم .
(*) المعنى أقام الله على أبوابها داعى الهدى . فتعرب « داعى » مفعول به منصوب بفتحة ظاهرة . وبهذا يستقيم وزن البيت .

وهو يقدم لنا هذه النصيحة فى أسلوب عذب جميل مؤثر عميق هو أسلوب الإغراء والتحذير .

الإغراء بالتقدم وتقديم النفس ثمناً مبذولا ؛ فداء وتضحية . حباً وشوقاً .

واقتحام سكرات الموت وشدائده . فالموت فى سبيل الله هو باب السعادة وباقتحامه تبدأ فى الصعود وارتقاء سلم المحبة . . حتى تصل إلى أعلى الغايات . . وتنعم بنسيم الرضا .

إنها صفقة . . . ويالها من صفقة ، إنها صفقة النجاة والفوز العظيم . .

فهيا سلّم واستلم بحسب العقد القرآنى الشريف :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون الله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » (الصف : ١٠ – ١٢) .

ولابد لكى تظفر وتفوز أن تكون ذا نفس شريفة وهمة عالية لا ترضى إلا بما هو أسمى . أما أهل البطالة والكسل فقد قعدت بهم أنفسهم المهينة وهممهم القعساء .

* * *

واحذر الأَماني الباطلة . . والأَحلام الكاذبة (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ؛ والله سريع الحساب) (النور : ٣٩) .

وأخسُّ الناس همةً ، وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأَمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه ، وتحلى بها ، وهى لعمر الله رءوس أموال المفلسين ، ومتاجر البطالين ، وهى قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانى من سُعدى رواءٌ على الظمى سقتنا بها سُعدى على ظماء بردا
مُنى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغدا (١)

وهى أضر شيء على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط والحسرة والندامة . والتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله ، مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب ، وهو لا يأْكل ولا يشرب والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها بأَن ينفس عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطرها بباله ويأْنف لنفسه منها (٢) .

---

(١) فى الأصل : منى إن تكن أحسن المنى . . . والصواب ما أثبتناه .
(٢) الجواب الكافى عن سأل عن الدواء الشافى لابن القيم ص ١٦٥ — ١٦٦

لقد عرفت الآن سعدى وأدركت مصير ضحاياها فاحذرها أشد الحذر . وإن تكن قد عملت على تعطيلك عن الرحلة زمناً وأوقعت قلبك المسكين أسيراً فى حوزتها وقبضتها وراحت تعمل على التلاعب بك وإهانتك بمناسبة وغير مناسبة .

إنها ترى منك المبالغة فى التقرب منها والتودد إليها . ولكنها لا تعبأ بك بل وتبالغ فى إهانتك بالتودُّد إلى عدوِّك الواشى الساعى بالوقيعة بينك وبينها . فأَى هوانٍ وأى مذلة . ! اتركها واهملها . وهل تستحق منك إلا الترك والإهمال ، اتركها وتصبَّر عنها بالجنة والسعى إلى الجنة وإلى روضات الجنة التى يتبسم فيها الحق مشرقاً وتدنو فيها القطوف ويسهل حصادها للراغبين .

لقد تزينت الجنات من أجلك وفتحت لك أبوابها إن كنت من راغبيها وخطَّابها . فهل أنت من راغبيها وخطابها ؟ ! إن كل شىء فى الجنة طيب . فطوبى لمن استقروا فيها وظفروا بنعيمها .

هيا تقدم . فهذا داعى الهدى . قد أقامه الله على أبوابها ينادى هلموا إلى دار السعادة . حتى تظفروا بالسعادة الخالصة .

وإياك أن تكون من الأَشقياء . وجاهد أن تكون من السعداء الذين يستحقون أن يكونوا أهل الجنة ؛ فإن كنت منهم فإنك أنت السعيد . وإلا . . . فليس أمامك سوى الشقاء الملازم . . المحتم .

قال تعالى : ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأَبرار .

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . (آل عمران (١٩٢) .

الخاتمـــة

وفى الختام نسترجع معاً أهم معالم الرحلة . . وأغراضها ومقاصدها

١ ـ الميمية للإمام ابن القيم والتى أسميناها « الرحلة إلى بلاد الأشواق » ليست مجرد منظومة دينية وإنما هى قصيدة فنية عالية المستوى . . إنها قصيدة أشواق ومشاعر . . غنية بالصور والظلال . . ذاخرة بالأخيلة الجميلة والمشاهد الرائعة وهى فوق ذلك عامرة بالابعاد النفسية والتجارب الإنسانية .

٢ ـ لقد خسر تاريخ الأدب العربى خسارة كبيرة بجهله لهذه القصيدة .

٣ ـ وأسباب هذا الجهل والتجاهل كثيرة . . . أهمها عوامل الانحراف التى أفسدت هذا التاريخ من مقاييس باطلة وموازين فاسدة .

٤ ـ إن تاريخ الأدب العربى فى حاجة ماسة إلى كتابته من جديد على أسس سليمة . . وقيم سامية .

٥ ـ لم يعرف تاريخ الأدب من شعر الذهد إلا نماذج منحرفة منه وغريبة على المفهوم الإنسانى كزهد أبى العتاهية مثلا .

٦ ـ لقد فتح أبوابه للمديح الكاذب واللهو الماجن . . وأغفل القيمة الإنسانية . . ولم يحفل باشواق الإنسان وتجاربه أديباً أو قارئاً . وهذا بسبب العوامل التى أشرنا إليها . .

٧ ـ لا يمكن لهذه التربة الفاسدة ـ تاريخ الأدب العربى ـ أن

تعترف بشاعر وجد نفسه ووعى ذاته — واعتز بكرامة عقله ، وفكره ولسانه، وأشواقه ، وتجاربه .

٧ — الرحلة إلى بلاد الأشواق . . تعتبر تمثيلاً صادقاً واستجابة حقيقية لدعوة الاستاذ « سيد قطب » بأن يستفيد الأدب من طريقة القرآن الاساسية — وهو كتاب العرب الأول — ألا وهى طريقة التصوير والظلال ؛ للارتفاع بالأدب إلى آفاق رفيعة .

٩ — القصيدة صورة معبرة عن تجربة الشاعر ومعاناته وشعوره بالغربة والاغتراب ، ثم تعلقه واشتياقه إلى الخلاص المتمثل فى بلاد الأفراح والأشواق، ثم عزمه على الرحلة والسفر فى محبه ولهفة والتياع .

١٠ — الشاعر يمتلك طاقة فنية هائلة . . وهو يحشدها جميعاً لتجسيد عاطفته ونقل تجربته .

١١ — الأسلوب جاء معبراً عن التجربة والمعاناة . . ومصدراً للعاطفة يثير لدى القارئ شعوراً قريباً من شعور الشاعر فى تجربته .

١٢ — الشاعر يعتمد على بعض الصور القرآنية والحديثية فينطلق بهما إلى آفاق فنية سامية دون الوقوع فى النقل المباشر .

١٣ — حتى فى أغراض الذهد يلجأ الشاعر إلى طريقته المحببة الأثيرة : التصوير والظلال .

١٤ — العلاقة بين الشاعر والطبيعة فى القصيدة هى علاقة الصداقة والألفة القوية التى تصل إلى حد الامتزاج والتوحد .

١٥ – الإمام ابن القيم هو رائد طريقة التصوير والظلال على المستوى النظرى والمستوى التطبيقى . وإذا كان عبد القاهر الحرجانى قد كان النبع منه على ضربه معول . . فلم يضربها فإن ابن القيم أدرك النبع وضرب المعول فى ثقة ويقين واقتدار حتى أخرج لنا منه الماء الزلال .

١٦ – ابن القيم التفت إلى الوظيفة الصوتية وتنبه إلى العلاقة العجيبة بين الألفاظ ومعانيها .

١٧ – مجالات الريادة عند ابن القيم متعددة ؛ فهو أول من أدرك الوحدة العضوية للسورة القرآنية ، وتكامل سور القرآن وارتباط أجزائها بعضها إلى بعض ضمن إطار عام يمثل الهدف الأساسى الذى تتجه السورة إلى خدمته . . بحيث تكون كل آية فيها تمثل لبنه من اللبنات المتممة لبناء صرح وطيد الأركان (١) .

وقبل أن نفترق أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذه الرحلة وأن يوفقنا فى رحلتنا إليه وأن يجعل خاتمتنا على الخير .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . . .

مصطفى عراقى

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

الخميس : ١٥ ذى الحجة ١٤٠٣ هجرية .

٢٢ سبتمبر ١٩٨٣ .

---

(١) منهج ابن القيم فى التفسير ص ٨٨ .

الفهارس

١ – فهرس الآيات القرآنية .

٢ – فهرس المراجع .

٣ – فهرس الموضوعات .

فهرس آيات القرآن

* * *

المراجـــع

أولا : القرآن الكريم :

ثانياً : التفسير

١ ـ تفسير القرآن العظيم :
أبو الفداء إسماعيل بن كثير ـ طبعة الشعب .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن :
أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ـ طبعة الشعب .

٣ ـ صفوة التفاسير :
محمد على الصابونى ـ طبعة الشربتلى .

٤ ـ تفسير القاسمى :
محمد جمال الدين القاسمى ـ طبعة دار الفكر

ثالثاً : الحديث الشريف

١ ـ صحيح البخارى :
محمد بن إسماعيل البخارى ـ طبعة الشعب .

٢ ـ صحيح مسلم :
مسلم بن الحجاج النسابورى ـ طبعة الشعب .

٣ ـ المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج :
أبو زكريا يحيى بن شرف النووى ـ طبعة الشعب .

٤ ـ سنن الترمذى :
أبو عيسى الترمذى : طبعة الحلبى .

٥ ـ تحفة الأحوذى بشرح الترمذى :
أبى العلى محمد عبد الرحمن المباركفورى ـ السلفية بالمدينة المنورة .

٦ — رياض الصالحين :
أبو زكريا يحيي بن شرف النووى — الحلبي .

٧ — دليل الفالحين :
محمد بن علان الصديقى الشافعى — الحلبى

٨ — شرح الأربعين النووية :
أبو زكريا يحيي بن شرف النووى — دار الأنصار .

١٠ — قوة الحجاج فى عموم المغفرة :
أبي الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى — مكتبة القاهرة .

١١ — فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى :
للشيخ عبد الله الشرقاوى — الحلبى .

رابعاً : كتب اللغة والأدب

١ — لسان العرب :
لابن منظور — د ار المعارف .

٢ — المصباح المنير فى غريب شرح الكبير للرافعى :
أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى — دار المعارف .

٣ — مختار الصحاح :
الإمام محمد بن أبى بكر الرازى — دار المعارف .

٤ — أساس البلاغة :
أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى — دار المعرفة ببروت .

٥ — النحو الوافى :
عباس حسن — دار المعارف

خامساً : كتب الأستاذ سيد قطب

١ — فى ظلال القرآن . — د ار الشروق

٢ — التصوير الفنى فى القرآن . — دار الشروق.

٣ — كتب وشخصيات . — دار الشروق

سادساً : السيدة عائشة عبد الرحمن

« بنت الشاطئ »

١ – قيم جديدة للأدب العربي .		دار المعرفة

سابعاً : كتب الإمام ابن القيم

١ – حادى الأرواح .		مكتبة المثنى ببغداد

٢ – الوابل الصيب من الكلم الطيب .		مكتبة الرياض الحديثة

٣ – الفوائد .		مكتبة المتنبي

٤ – مفتاح دار السعادة .		مكتبة الفاروق الحديثة

٥ – زاد المعاد فى هدى خير العباد .		المطبعة المصرية

٦ – طريق الهجرتين وباب السعادتين .		السلفية

٧ – مدارج السالكين .		السنة المحمدية

٨ – الجواب الكافى .		مكتبة السنة المحمدية

٩ – روضة المحبين		مكتبة الجامعة

١٠– عدة الصابرين .		دار الكتب العلمية

١١– تحفة المودود .		المكتبة القيمة

١٢– منهج ابن القيم فى التفسير– محمد أحمد السنباطى – مجمو البحوث الإسلامية

صدر للمؤلف

١ — عالم الضيـــاء .	ديوان شعر ١٩٨٣
٢ — أنشودة أحزاني	ديوان شعر ١٩٨٦

تحت الطبـع

١ — اختلاف الحديث — للإمام الشافعي . . .	تحقيق
٢ — إن من الشعر لحكمة .	ديوان شعر
٣ — وجه المأساة .	ديوان شعر
٤ — جنة الأطفال .	مسرحية شعرية
٥ — يوسف .	مسرحية شعرية
٦ — الشمس تعود للظهور .	مسرحية شعرية
٧ — عودة سندباد .	مسرحية شعرية

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

رقم الإيداع ١٩٨٧/٢٣٠١

مطبعة التقدم ت ٨٤١٤٢١